الإنسان بين قمة الإسلام وسفح الجاهلية

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإن الناس في تاريخهم الطويل إما أن يعيشوا في ظل الإسلام الذي أنزله الله تعالى لسعادة الناس في المعاش والمعاد،كما قال تعالى:{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]

وإما أن يدعوا الإسلام جانبا ويعيشوا في ظل الجاهليات المتوالية عبر العصور،والتي تحمل في طياتها الفحش والخنا والفجور والظلم والفساد،قال تعالى:{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص.فالجاهلية – كما يصفها الله ويحددها قرآنه – هي حكم البشر للبشر،لأنها هي عبودية البشر للبشر،والخروج من عبودية الله،ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله ..

إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس،ويوجد اليوم، ويوجد غدا،فيأخذ صفة الجاهلية،المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعض منها – ويقبلونها ويسلِّمون بها تسليما،فهم إذن في دين الله.وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – ويقبلونها فهم إذن في جاهلية وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله.

والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية،ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق،يقف الله الناس عليه.وهم بعد ذلك بالخيار! ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله.«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ » ..

وأجل! فمن أحسن من الله حكما؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول: إن الله – سبحانه – وهو يشرع شريعته الأخيرة،ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين،ويجعل رسالته خاتمة الرسالات،ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان – سبحانه – يجهل أن أحوالا ستطرأ،وأن حاجات ستستجد،وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه،حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحِّي شريعة الله عن حكم الحياة،ويستبدل بها شريعة الجاهلية،وحكم الجاهلية ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب،أو هوى جيل من أجيال البشر،فوق حكم الله،وفوق شريعة الله؟

ما الذي يستطيع أن يقوله .. وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ .. ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته،وأن يسيروا على منهجه،وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة،والأوضاع المتجددة،والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد،ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء .. ولكن المسلم .. أو من يدَّعون الإسلام .. ما الذي يقولونه من هذا كله،ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق،الذي لا معدى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال ..

إما إسلام وإما جاهلية.إما إيمان وإما كفر.إما حكم الله وإما حكم الجاهلية ..[1]

وفي كتابنا هذا الموضوعات التالية :

١. تطهير المجتمع المسلم من أدران الجاهلية
٢. وجوب الاصلاح بين الزوجين
٣. نجاح الإسلام في تحريم الخمر وفشل غيره
٤. معركة الجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية المحيطة بها
٥. إنشاء القرآن للأمة المسلمة
٦. لا هوادة في التعامل مع المنافقين
٧. محاولة أعداء الإسلام إضلال الرسول
٨. كيف أنقذ القرآن المسلمين من الجاهلية للإسلام
٩. بناء المجتمع المسلم وتطهيره من أدران الجاهلية
١٠. كمال الدين برسالة الإسلام
١١. إخراج الأمة المسلمة
١٢. دعوة الكفار للإعتبار من هلاك السابقين
١٣. المساواة بين الناس في الإسلام

وهو يبين حالة الناس بين هذين الخيارين ......

وعلى المسلمين أن يعوا جيدا ذلك تمام الوعي ...

[1] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٩٦)

فلن يغنيهم عن دين الله تعالى،لا مبادئ الشرق ولا مبادئ الغرب،مهما ظهرت براقة، فهي لا خير فيها أبدا،ولن توصل هذا الإنسان للساعدة أبدا،بل كلها شقاء بشقاء، وتعاسة بتعاسة .

قال تعالى:{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) } [طه]

وَمَنْ خَالَفَ أَمْرِي،وَكَفَرَ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَى رُسُلِي،وَأَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي وَتَنَاسَاهُ فَسَتَكُونُ مَعِيشَتُهُ فِي الدُّنْيَا ضَنْكاً لاَ طُمَأنِينَةَ لَهُ فِيهَا،وَلاَ يَنْشَرِحُ فِيهَا صَدْرُهُ،بَلْ يَبْقَى صَدْرُهُ ضَيِّقاً حَرِجاً،بِسَبَبِ ضَلاَلِه.وَمَا لَمْ يَخْلُصِ الهُدَى وَاليَقِينُ إِلَى قَلْبِهِ،فَإِنَّهُ سَيَبْقَى فِي قَلَقٍ وَحِيرَةٍ وَشَكٍّ،وَيَحْشُرُهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى البَصَرِ وَالبَصِيرَةِ،قَدْ عَمِيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيءٍ إِلاَّ جَهَنَّمَ،لأَنَّ الجَهَالَةَ التِي كَانَ فِيهَا فِي الدُّنْيا تَبْقَى مُلاَزِمَةً لَهُ فِي الآخِرَةِ .[2]

أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٨ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ الموافق ل ٢٠١٢/١/٣١ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[2] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٤٣٧، بترقيم الشاملة آليا)

هذه السورة (سورة النساء) تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة،وإنشاء المجتمع الإسلامي وفي حماية تلك الجماعة،وصيانة هذا المجتمع. وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد،الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه،والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني. وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني.. تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد،من السفح الهابط،إلى القمة السامقة.. خطوة خطوة،ومرحلة مرحلة.. بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب وبين أشواك الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك! وكما رأينا من قبل – في سورة البقرة وسورة آل عمران – مواجهة القرآن لكل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة وبيان طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة على أساسه وتقرير الحقائق الأساسية التي يقوم عليها التصور الإسلامي،والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور وإبراز التكاليف التي يقتضيها النهوض بهذه الأمانة في الأرض وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض،وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ودسائسهم وبيان ما في عقائدهم من زيف وانحراف،وما في وسائلهم من خسة والتواء... إلخ... فكذلك نرى القرآن – في هذه السورة – يواجه جملة هذه الملابسات والحقائق..

إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة،وملامحها المميزة،ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا.. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها،تبرز فيه ملامحها،وتتميز به شخصيتها. كالكائن الحي المميز السمات والملامح،وهو – مع هذا – واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السورة – ونكاد نحس – أنها كائن حي،يستهدف غرضا معينا،ويجهد له،ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل.. والفقرات والآيات والكلمات في السورة،هي الوسائل

التي تبلغ بها ما تريد! ومن ثم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي،المعروف السمات،المميز الملامح،صاحب القصد والوجهة،وصاحب الحياة والحركة،وصاحب الحس والشعور! إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي - الذي منه التقطت المجموعة المسلمة - ونبذ رواسبه وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم،وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه،وجلاء شخصيته الخاصة.

كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة،وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة،والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه - من ضعاف الإيمان والمنافقين - وكشف وسائلهم وحبلهم ومكايدهم،وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم. مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده،وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.

وفي الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية،وهي تتصارع مع المنهج الجديد،والقيم الجديدة،والاعتبارات الجديدة. ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة. ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان. وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة،عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر،مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه! وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء،والتي تعالج هذه السورة جوانب منها - كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى - قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب،حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها.. ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر.. ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد،بالجماعة المسلمة. وقد التقطها من ذلك السفح الهابط،الذي تمثله تلك الرواسب،فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة.. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط،إلا على حداء ذلك

المنهج العجيب الفريد. المنهج الذي يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح،فيرتقي بها إلى تلك القمة،رويدا رويدا،في يسر ورفق،وفي ثبات وصبر،وفي خطو متناسق موزون! والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية،يتجلى له جانب من حكمة اللّه في اختيار «الأميين» في الجزيرة العربية،في ذلك الحين،لهذه الرسالة العظيمة.. حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة،بكل مقوماها. الاعتقادية والتصورية،والعقلية والفكرية،والأخلاقية والاجتماعية،والاقتصادية والسياسية،ليعرف فيهم أثر هذا المنهج،وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة،التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر،في كل ما عرفت الأرض من مناهج،وليرتسم فيهم خط هذا المنهج،بكل مراحله - من السفح إلى القمة - وبكل ظواهره،وبكل تجاربه،ولترى البشرية - في عمرها كله - أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة،أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد.

سواء كانت في درجة من درجاته،أم كانت في سفحه الذي التقط منه «الأميين»! إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته،لأنه يتعامل مع «الإنسان». وللإنسان كينونة ثابتة،فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى. وكل التحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته،ولا تبدل من كينونته،ولا تحوّله خلقا آخر. إنما هي تغيرات وتطورات سطحية،كالأمواج في الخضم،لا تغير من طبيعته المائية،بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة،المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة! ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة،تلك الكينونة البشرية الثابتة. ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان،فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة،وأطوارها المتجددة،بنفس المرونة التي يواجه بها «الإنسان» ظروف الحياة المتغيرة،وأطوارها المتجددة،وهو محافظ على مقوماته الأساسية.. مقوّمات الإنسان..

وفي «الإنسان» هذا الاستعداد،وهذه المرونة،وإلا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها،وهي ليست ثابتة من حوله. وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسان،ذات الخصائص،بحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منه الإنسان،ومودع خصائصه ذاها،ومعدّ للعمل معه إلى آخر الزمان.

وهكذا يستطيع ذلك المنهج،وتستطيع هذه النصوص،أن تلتقط الفرد الإنساني،وأن تلتقط المجموعة الإنسانية،من أي مستوى،ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد،فينتهي بـــه وبها إلى القمة السامقة..

إنه لا يرده ولا يردها أبدا إلى الوراء،ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقـــى. كما أنه لا يضيق به ولا بها،ولا يعجز عن رفعه ورفعها،أيا كان مكانه أو مكانهـــا مـــن السفح السحيق! المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهليـــة القديمـــة،والمجتمع الصناعي المتحضر،كالمجتمع الأوربي والأمريكي في الجاهلية الحديثة.. كلاهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانه،ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان،فيرقى به في المرتقـــى الصاعد،إلى القمة السامقة،التي حققها الإسلام،في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني..

إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ. إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر.

وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء. ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم،يأخذ البشر عن بشر مثلهم:التصورات والمبادئ،والموازين والقيم،والشـــرائع والقوانين،والأوضاع والتقاليد.

وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها. الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر،حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون اللّه.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد،الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر. لأنهم يتلقـــون التصورات والمبادئ،والموازين والقيم،والشرائع والقوانين،والأوضاع والتقاليد،من يد اللّه – سبحانه – فإذا أحنوا رءوسهم فإنما يحنونها للّه وحده،وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون اللّه وحده،وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون للّه وحده. ومن ثم يتحررون حقا مـــن عبوديـــة العبيد للعبيد،حين يصبحون كلهم عبيدا للّه بلا شريك.

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية – في كل صورة من صورها – وبين الإسلام. وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبة لمستريب.

ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم،كان يواجه حالــة واقعــة في المجتمع الجاهلي،وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة،وإما إبطال حالة قائمة.. وذلــك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة:«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. ومــع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أســلفنا. وفي هذا تمكن المعجزة. فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها،هي ذاتها التي تواجــه الجماعة الإنسانية،في أي طور من أطوارها. والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية،هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة – أيا كان موقفها على الدرج الصاعد – ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة،التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى،يوم التقطها من ذلك السفح السحيق! ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجــاهلي،من خــلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها،وأن يثبتها في المجتمع الجديد..

فماذا نحن واجدون – في هذه السورة – من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راســبة في الجماعة المسلمة،منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وماذا نحن واجدون مــن الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها! إننا نجــد مجتمعــا تؤكل فيه حقــوق الأيتــام – وبخاصــة اليتمــات – في حجــور الأهــل والأوليــاء والأوصياء،ويستبدل الخبيث منها بالطيب،ويعمل فيها بالإسراف والطمع،خيفة أن يكــبر اليتامى فيستردوها! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال،ليتخذهن الأولياء زوجات،طمعا في مالهن لا رغبة فيهن! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته! ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث. إنما يستأثر فيــه بمعظم التركة الرجال الأقوياء،القادرون على حمل السلاح ولا ينــال الضــعاف فيــه إلا الفتات.

وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات،هو الذي يحتجــزن مــن أجله،ويحبسن على الأطفال من الذكور أو على الشيوخ من الأولياء. كي لا يخرج المــال بعيدا ولا يذهب في الغرباء! ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم،ويعاملها بالعســف

والجور. في كل أدوار حياتها. يحرمها الميراث – كما قلنا – أو يحبسها لما ينالها منع،ويورّثها للرجل كما يورثه المتاع! فإذا مات زوجها جاء وليه،فألقي عليها ثوبه،فيعرف أنها محجوزة له. إن شاء نكحها بغير مهر،وإن شاء زوجها وأخذ مهرها! ويعضلها زوجها إذا طلقها،فيدعها لا هي زوجة،ولا هي مطلقة،حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها! ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه،علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء،واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب،فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية. حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة. ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية. وتغتصب فيه الحقوق. وتجحد فيه الأمانات.

وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح. ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء. كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس،اجتلابا للمفاخر،ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء! وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية – وهي التي تصدت لها هذه السورة – ووراءها ما صورته السور الأخرى،وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب،وفيمن حولهم من الأمم»..

إنه لم يكن – قطعا – مجتمعا بلا فضائل. فقد كانت له فضائله،التي تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى.

ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا،ووجهها الوجهة البناءة. وكانت – لولا الإسلام – مضيعة تحت ركام هذه الرذائل،مفرقة غير متجمعة،وضائعة غير موجهة. وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة،لولا هذا المنهج،الذي جعل يمحو ملامح الجاهلية الشائهة،وينشئ أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة،ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة،شأنها في هذا شأن سائر أمم الجاهلية التي عاصرتها،والتي اندثرت كلها،لأنها لم تدركها رسالة و لم تنشئها عقيدة! من تلك الجاهلية،التي هذه بعض ملامحها،التقط الإسلام المجموعة التي قسم اللّه لها الخير،وقدّر أن يسلمها قيادة البشر،فكون منها الجماعة المسلمة،وأنشأ بها المجتمع المسلم. ذلك المجتمع الذي بلغ إلى القمة التي لم

تبلغها البشرية قط،والتي ما تزال أملا للبشرية،يمكن أن تحاوله،حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق.

وفي هذه السورة نجد بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم،بعد تطهيره من رواسب الجاهلية،وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية،التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي.

نجد في مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها،ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها،ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة،واتصالها بوشيجة الرحم،مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري،واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها،وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة،ذات الخالق الواحد،وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة وتنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم،والمجتمع الإنساني كله،على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ،وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها،وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً،وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً».. وهذه الحقيقة الكبيرة التي تتضمنها آية الافتتاح تمثل قاعدة أصيلة في التصور الإسلامي،تقوم عليها الحياة الجماعية. نرجو أن نعرض لها بالتفصيل في مكانها من سياق السورة.

ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة:في حماية اليتامى نجد التوجيه الموحي،والتحذير المخيف،والتشريع المحدد الأصول:«وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ،وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (آية ٢)..

وَابْتَلُوا الْيَتامى،حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً،وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا. وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ،وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ. فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ. وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» (آية ٦).. «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ. فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ،وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

سَديداً. إنَّ الَّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً،وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً» (٩ – ١٠)..

وفي حماية الإناث خاصة – يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات – وحفظ حقهن جميعا في الميراث،وفي الكسب،وفي حقهن في أنفسهن،واستنقاذهن من عسف الجاهلية،وتقاليدها الظالمة المهينة.. نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة:«وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ،مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ،فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً،أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ،ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا[٣]. وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً،فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً».. (٣ – ٤).. «لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ. مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً» (آية ٧).. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً،وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ – إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ – وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً،وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً. وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ،وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً. أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ،وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً؟».. (١٩ – ٢١).. «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ.

قُلِ:اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ،وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ،وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ. وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ،وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ. وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً».. (آية ١٢٧)..

وفي تنظيم الأسرة،وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة،وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية.. ترد مثل هذه التوجيهات والتوجيهات والتنظيمات – بالإضافة إلى ما ورد منها في ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات –:«وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ. إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلًا. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ

---

[٣] – تعولوا : تجوروا.

أُمَّهاتُكُمْ،وَبَناتُكُمْ،وَأَخَواتُكُمْ،وَعَمَّاتُكُمْ،وَخالاتُكُمْ،وَبَناتُ الْأَخِ،وَبَناتُ الْأُخْتِ،وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتي أَرْضَعْنَكُمْ،وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَة،وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ،وَرَبائِبُكُمُ اللَّاتي في حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ – فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ – وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ،وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ – إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً. وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ – إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ – كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. وَأُحِلَّ لَكُمْ – ما وَراءَ ذلِكُمْ – أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنينَ غَيْرَ مُسافِحينَ. فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَريضَةً،وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَريضَةِ. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً» (٢٢ – ٢٤).. «الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ،بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ،وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ. فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ،وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ،وَاضْرِبُوهُنَّ. فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا،إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبيراً. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها،إِنْ يُريدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما،إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً خَبيراً».. (٣٤ – ٣٥).. «وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً،وَالصُّلْحُ خَيْرٌ،وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ،وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ،فَلا تَميلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً. وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ،وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكيماً».. (١٢٨ – ١٣٠)..

وفي تنظيم علاقات الميراث والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة وبين الموالي والأولياء الذين كانوا متعاقدين قبل نزول تشريعات النسب،وإبطال التبني،ترد هذه المبادئ الجامعة وهذه التشريعات المحددة،ذات الأهداف الاجتماعية البعيدة:«لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ،مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيباً مَفْرُوضاً (آية ٧).. «يُوصيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ:لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ،وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ. وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا

تَرَكَ – إنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ – فَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلأُمِّه الثُّلُثُ. فَإنْ كانَ لَهُ إخْوَةٌ فَلأُمِّه السُّدُسُ – منْ بَعْد وَصيَّة يُوصي بها أَوْ دَيْنٍ – آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَـدْرُونَ أَيُّهُـمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً. فَريضَةً منَ اللَّه،إنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً. وَلَكُـمْ نصْـفُ مـا تَـرَكَ أَزْواجُكُمْ – إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ – فَإنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ ممَّا تَرَكْنَ – منْ بَعْـد وَصيَّة يُوصينَ بها أَوْ دَيْنٍ – وَلَهُنَّ الرُّبُعُ ممَّا تَرَكْتُمْ – إنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ – فَإنْ كـانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ ممَّا تَرَكْتُمْ – منْ بَعْد وَصيَّة تُوصُونَ بها أَوْ دَيْنٍ – وَإنْ كانَ رَجُـلٌ يُورَثُ كَلالَةً،أَوِ امْرَأَةٌ،وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ،فَلكُلِّ واحد منْهُمَا السُّدُسُ.فَإنْ كانُوا أَكْثَرَ مـنْ ذلكَ فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُث – منْ بَعْد وَصيَّة يُوصى بها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ – وَصيَّةً مـنَ اللَّه وَاللَّهُ عَليمٌ حَليمٌ».. (١١ – ١٢).. «يَسْتَفْتُونَكَ. قُلِ اللَّهُ يُفْتيكُمْ في الْكَلالَة:إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ،وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نصْفُ ما تَرَكَ. وَهُوَ يَرِثُها إنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَـدٌ. فَـإنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثان ممَّا تَرَكَ. وَإنْ كانُوا إخْوَةً رجالًا وَنساءً فَللـذَّكَرِ مثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضلُّوا،وَاللَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ».. (آية ١٧٦).. «وَلكُلٍّ جَعَلْنـا مَواليَ ممَّا تَرَكَ الْوالدان وَالْأَقْرَبُونَ،وَالَّذينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصيبَهُمْ. إنَّ اللَّهَ كـانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيداً».. (آية ٣٣)..

وفي حماية المجتمع من الفاحشة،وتوفير أسباب الإحصان والوقايـة.. نجـد مثـل هـذه التنظيمات:«وَاللَّاتي يَأْتينَ الْفاحشَةَ منْ نسائكُمْ فَاسْتَشْهدُوا عَلَيْهنَّ أَرْبَعَةً منْكُمْ فَإنْ شَهدُوا فَأَمْسكُوهُنَّ في الْبُيُوت حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ،أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبيلًا. وَالَّـذان يَأْتيانهـا منْكُمْ فَآذُوهُما،فَإنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرضُوا عَنْهُما،إنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّابـاً رَحيمـاً».. (١٥ – ١٦).. «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطعْ منْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكحَ الْمُحْصَنات الْمُؤْمنات فَمنْ مـا مَلَكَـتْ أَيْمانُكُمْ منْ فَتَياتكُمُ الْمُؤْمنات. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بإيمانكُمْ،بَعْضُكُمْ منْ بَعْضٍ. فَانْكحُوهُنَّ بـإذْن أَهْلهنَّ،وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالْمَعْرُوف،مُحْصَنات غَيْرَ مُسافحات وَلا مُتَّخذات أَخْدان. فَإذا أُحْصنَّ فَإنْ أَتَيْنَ بفاحشَة فَعَلَيْهنَّ نصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَنات منَ الْعَذاب. ذلكَ لمَنْ خَشيَ الْعَنَتَ منْكُمْ. وَأَنْ تَصْبرُوا خَيْرٌ لَكُمْ،وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ. يُريدُ اللَّهُ ليُبَـيِّنَ لَكُمْ،وَيَهْـديَكُمْ سُنَنَ الَّذينَ منْ قَبْلكُمْ،وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ».. (٢٥ – ٢٦)..

وفي تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح،والأمانة،والعدل،والسماحة والمودة،والإحسان.. ترد توجيهات وتشريعات شتى – إلى جانب ما ذكرنا من قبل – نذكر منها هنا على سبيل المثال بضعة نماذج ولا نستقصيها فستأتي كلها في مكانها من سياق السورة:«وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً،وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً» (آية ٥)..

« وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً».. (آية ٨) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ – إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ – وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ،إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً،وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً».. (٢٩ – ٣٠).. «وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ. لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ. وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ. إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً».. (آية ٣٢).. «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً. وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً،وَبِذِي الْقُرْبى،وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ،وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى،وَالْجارِ الْجُنُبِ،وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ،وَابْنِ السَّبِيلِ،وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ،وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ،وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً،وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ،وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً».. (٣٦ – ٣٨).. «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها،وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ. إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً».. (آية ٥٨).. «مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً. وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً».. (٨٥ – ٨٦).. «وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً..»

«وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها،وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ،وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً».. (٩٢ –٩٣).. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ،شُهَداءَ لِلَّهِ،وَلَوْ عَلى

أَنْفُسكُمْ أَوِ الْوالدَيْنِ وَالْأَقْرَبينَ. إنْ يَكُنْ غَنيًّا أَوْ فَقيراً فَاللَّهُ أَوْلى بهما. فَلا تَتَّبعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدلُوا. وَإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبيراً».. (آية ١٣٥).. «لا يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ منَ الْقَوْلِ إلَّا مَنْ ظُلمَ. وَكانَ اللَّهُ سَميعاً عَليماً. إنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ،فَإنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَديراً».. (١٤٨ - ١٤٩)..

إلى جانب ذلك الهدف الكبير في تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح،والأمانة والعدل والمودة والطهارة ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة.. نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا في حياة المجتمع المسلم - إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأول - ذلك هو تحديد معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين،وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام.

إن الدين هو النظام الذي قرره اللّه للحياة البشرية بجملتها،والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها واللّه وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك. والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع،ومنها وحدها يكون التلقي،ولها وحدها يكون الاستسلام.. فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة - كما له عقيدة خاصة وتصور خاص - قيادة ربانية متمثلة في رسول اللّه - ﷺ - وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة اللّه ومنهجه. وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه «مجتمعا مسلما». وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون «مسلما» بحال. وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى اللّه والرسول،ورد الأمر كله إلى اللّه،والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم.

وتبلغ نصوص السورة في بيان هذه الحقيقة،وتقرير هذا الأصل،مبلغا حاسما جازما،لا سبيل للجدال فيه،أو الاحتيال عليه،أو تمويهه وتلبيسه،لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال! وتقرير هذا المبدأ الأساسي يتمثل في نصوص كثيرة كثرة واضحة في السورة. وسيجيء استعراضها التفصيلي في مكانها من السياق. فنكتفي هنا بذكر بعضها

إجمالا :يتمثل على وجه الإجمال في آية الافتتاح في السورة:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ منْ نَفْسٍ واحدَة..».. كما يتمثل في مثل هذه الآيات:«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً...» (آية ٣٦).. «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ».. (آية ٤٨)..

ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد في مثل قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الْأَمْرِ منْكُمْ،فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ،إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الْآخرِ. ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْويلًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بما أُنْزلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزلَ منْ قَبْلكَ يُريدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ - وَقَدْ أُمرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - وَيُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضلَّهُمْ ضَلالًا بَعيداً. وَإِذا قيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».. (٥٩ - ٦١).. «وَما أَرْسَلْنا منْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّه».. (آية ٦٤).. «فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً».. (آية ٦٥).. «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ،وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفيظاً».. (آية ٨٠).. «وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ - منْ بَعْد ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى - وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ،نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى،وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً».. (آية ١١٥)..

وهكذا يتحدد معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،ونظام المجتمع المسلم،ومنهجه في الحياة.

وهكذا لا يعود الإيمان مجرد مشاعر وتصورات ولا يعود الإسلام مجرد كلمات وشعارات،ولا مجرد شعائر تعبدية وصلوات.. إنما هو إلى جانب هذا وذلك،وقبل هذا وذلك. نظام يحكم،ومنهج يتحكم،وقيادة تطاع،ووضع يستند إلى نظام معين،ومنهج معين،وقيادة معينة. وبغير هذا كله لا يكون إيمان،ولا يكون إسلام،ولا يكون مجتمع ينسب نفسه إلى الإسلام.

وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي توجيهات كثيرة في السورة.كلها تفريعات على هذا الأصل الكبير:

١ – يترتب عليه أن تكون التنظيمات الاجتماعية كلها في المجتمع – شأنها شأن الشعائر التعبدية – مرتكنة إلى هذا الأصل الكبير،مستندة إلى معنى الدين،وحد الإيمان،وشرط الإسلام،على هذا النحو الذي قررته تلك النماذج التي أسلفنا. فهي ليست مجرد تنظيمات وتشريعات. إنما هي مقتضى الإيمان باللّه والاعتراف بألوهيته ،وإفراده بالألوهية،والتلقي من القيادة التي يحددها.. ومن ثم نرى كل التشريعات والتنظيمات التي أشرنا إليها تستند إلى هذه الجهة،وينص في أعقابها نصا على هذه الحقيقة:آية الافتتاح التي تقرر وحدة البشرية،وتدعو الناس إلى رعاية وشيجة الرحم،وتعد مقدمة لسائر التنظيمات التي تلتها في السورة.. تبدأ بدعوة الناس إلى تقوى ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة:«يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ».. وتنتهي إلى تقواه،وتحذيرهم من رقابته:«إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً»..والآيات التي تحض على رعاية أموال اليتامى،وتبين طريقة التصرف في أموالهم تنتهي بالتذكير باللّه وحسابه :«وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً»..

وتوزيع أنصبة الميراث في الأسرة يجيء وصية من اللّه:«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ...» «فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ».. وتنتهي تشريعات الإرث بهذا التعقيب:«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ،وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ»..

وفي تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات:«وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً».. «وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ.. كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ..».. «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ،وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ،وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».. «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً»..

«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً».. تسبق في الآية الوصية بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين.. إلخ وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات باللّه،وتستمد من شريعته،وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع.

٢ – ويترتب على إقرار ذلك الأصل الكبير أن يكون ولاء المؤمنين لقيادتهم ولجماعتهم المؤمنة. فلا يتولوا أحدا لا يؤمن إيمانهم،ولا يتبع منهجهم،ولا يخضع لنظامهم،ولا يتلقى من قيادتهم. كائنة ما كانت العلاقة التي تربطهم بهذا الأحد. علاقة قرابة. أو جنس. أو أرض أو مصلحة. وإلا فهو الشرك أو النفاق،وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال:«وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ – مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى – وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى،وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ،وَساءَتْ مَصِيراً. إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ،وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ،وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً».. (١١٥ – ١١٦).. «بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا)..[آية ١٣٩].. (يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا.إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله.فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما)..[١٤٤ – ١٤٦]..

٣ – ويترتب عليه وجوب هجرة المسلمين من دار الحرب – وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة السملمة – ليلحقوا بالجماعة المسلمة متى قامت في الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان – وليستظلوا برايه القيادة المسلمة ولا يخضعوا لراية الكفر – وهي كل راية غير راية الإسلام – وإلا فهو النفاق أو الكفر ؛وهو الخروج من الصف المسلم على كل حال:(فما لكم في المنافقين فئتين ؟ والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ؛ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا)..[٨٨ – ٨٩].. (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا:فيم كنتم ؟ قالوا:كنا مستضعفين في الأرض.قالوا:ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا.إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون

سبيلا.فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا.ومن يهاجر في سـبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهـاجرا إلى الله ورسـوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله.وكان الله غفورا رحيما)..[٩٧ - ١٠٠]..

٤ - ويترتب عليه أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين ، الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر ، وضمهم إلى الجماعـة المسـلمة في دار الإسلام ، كي لا يفتنوا عن دينهم ، ولا يستظلوا براية غير راية الإسلام ، ولا يخضـعوا لنظام غير نظامه.ثم لكي يتمتعوا بالنظام الإسلامي الرفيع ، وبالحياة في المجتمع الإسـلامي النظيف.وهو حق كل مسلم ، والحرمان منه حرمان من أكبر نعم الله في الأرض ، ومـن أفضل طيبات الحياة:(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنسـاء والولدان الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لـدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا)..[آية ٧٥]..

ويستتبع هذا الأمر حملة ضخمة للحض على الجهاد بالنفس والمال ، والتنديـد بـالمعوقين والمبطئين والقاعدين.وهي حملة تستغرق قطاعا كبيرا من السورة ، يرتفع عنـدها نـبض السورة الهادئة الأنفاس ! ويشتد إيقاعها ، وتحمى لذعاتها في التوجيه والتنديد !.[٤]



[٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [١ /٥٥٥]

قال تعالى:{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا } [النساء:٣٥]..

إِذَا وَقَعَ الشقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجين،أَسْكَنَ القَاضِي الزَّوْجَةَ إِلَى جَنْبِ ثِقَةٍ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهَا،وَيَمْنَعُ مِنْهُمَا الظَّالِمَ مِنْ ظُلْمِه،فَإِنْ تَفَاقَمَت الخُصُومَةُ بَيْنَهُما،وَصَارَتْ تُهَدِّدُ بالانْفصَال،بَعَثَ القَاضِي ثِقَةً مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَة وَثِقَةً مِنْ أَهْلِ الزَّوْجِ،لِيَجْتَمعَا وَيَنْظُرا فِي أَمْرِهِمَا،وَيَفْعَلا مَا فيه المَصْلَحَةُ ممَّا يَرَيَانه منَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّوْفيق،وَالشَّارِعُ أَمْيَلُ إِلَى التَّوْفيق،لِذَلِكَ قَالَ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما،فَهَذِه الأَحْكَامُ إِنَّمَا شَرَعَهَا اللهُ العَلِيمُ بِأَحْوالِ العِبَادِ وَأَخْلاَقِهِمْ،وَالخَبِيرُ بِمَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبِأَسْبَابِه.[٥]

وهكذا لا يدعو المنهج الإسلامي إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية ولا إلى المسارعة بفصم عقدة النكاح،وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار – الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة – فمؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام بقدر خطورتها في بناء المجتمع،وفي إمداده باللبنات الجديدة،اللازمة لنموه ورقيه وامتداده.

إنه يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة – عند خوف الشقاق – فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلا..يبعث حكم من أهلها ترتضيه،وحكم من أهله يرتضيه.يجتمعان في هدوء.بعيدين عن الانفعالات النفسية،والرواسب الشعورية،والملابسات المعيشية،التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين.طليقين من هذه المؤثرات التي تفسد جو الحياة،وتعقد الأمور،وتبدو – لقربها من نفسي الزوجين – كبيرة تغطي على كل العوامل الطيبة الأخرى في حياتهما.حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين.مشفقين على الأطفال الصغار.بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر – كما قد يكون الحال مع الزوجين في هذه الظروف – راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار...وفي الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين،لأنهما من أهلهما:لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار.إذ لا مصلحة لهما

---

[٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

في التشهير بها،بل مصلحتهما في دفنها ومداراتها! يجتمع الحكمان لمحاولة الإصـــلاح.فـــإن كان في نفسي الزوجين رغبة حقيقية في الإصلاح،وكان الغضب فقط هو الذي يحجـــب هذه الرغبة،فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين،يقدر اللّـــه الصـــلاح بينـــهما والتوفيق:«إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما»..فهما يريدان الإصلاح،واللّه يســـتتجيب لهما ويوفق..

وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم،ومشيئة اللّه وقدره..إن قدر اللّه هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس.ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا وبقدر اللّه – بعد ذلك – يكون ما يكون.

ويكون عن علم بالسرائر وعن خبرة بالصوالح :«إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً».

وهكذا نرى – في هذا الدرس – مدى الجدية والخطورة في نظـــرة الإســـلام إلى المـــرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة،وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية..ونرى مـــدى اهتمام المنهج الإسلامي بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الإنسانية.ونطلع على نمـــاذج من الجهد الذي بذله هذا المنهج العظيم،وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة – التي التقطها من سفح الجاهلية – في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة على هدى اللّه.الـــذي لا هـــدى سواه[٦]..



[٦] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٦٥٦]

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا } [النساء:٤٣]..

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ الصَّلاَةِ فِي حَالِ السُّكْرِ،الذي لاَ يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَقْرَأُ (وَكَانَ هذا قَبْلَ تَحْرِيمِ الخَمْرِ بِصُورَةٍ قَاطِعَةٍ).

وَيَنْهَى اللهُ تَعَالَى مَنْ كَانَ جُنُباً مِنْ دُخُولِ المَسَاجِدِ (إلاَّ أنْ يَكُونَ مُجْتَازاً مِنْ بَابٍ إلى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مَكْثٍ.وَكَانَتْ بُيُوتُ الأنْصَارِ أبْوابُها مِنْ دَاخِلِ المَسْجِدِ،فَكَانَتْ تُصِيبُهُمُ الجَنابَةُ وَلاَ مَاءَ عِنْدَهُمْ،فَيَرِدُونَ المَاءَ وَلاَ يَجِدُونَ مَمّراً إلاّ فِي المَسْجِدِ) وَيَسْتَمِرُّ تَحْرِيمُ المَكْثِ فِي المَسْجِدِ عَلَى الجُنُبِ وَالحَائِضِ حَتَّى يَغْتَسِلا أوْ يَتَيَمَّمَا.

وَإذَا كُنْتُمْ مَرْضَى مَرَضاً تُخَافُ زِيَادَتُهُ بِاسْتِعْمَالِ المَاءِ،أوْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَأحْدَثْتُمْ حَدَثاً أصْغَرَ (جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ) أَوْ وَاقَعْتُمُ النِّسَاءَ (لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ)،وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً لِتَغْتَسِلُوا أَوْ لِتَتَوَضَّؤُوا فَتَيَمَّمُوا التُّرَابَ الطَّاهِرَ الحَلالَ (الطِّيِّبَ)،فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأيْدِيكُمْ مِنْهُ لِيَقُومَ ذَلِكَ مَقَامَ الوُضُوءِ وَالغُسْلِ،وَمِنْ عَفْوِهِ تَعَالَى عَنْكُمْ،وَمِنْ غُفْرَانِهِ لَكُمْ،أنْ شَرَعَ لَكُمْ التَّيَمُّمَ،وَأَبَاحَ لَكُمُ الصَّلاَةَ إذَا فَقَدْتُمُ المَاءَ،تَوْسِعَةً عَلَيْكُمْ وَرُخْصَةً لَكُمْ،وَيَكُونُ التَّيَمُّمُ بِضَرْبَتَيْنِ بِاليَدَيْنِ عَلَى الأَرْضِ،ضَرْبَةً يَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ،وَضَرْبَةً يَمْسَحُ بِهَا يَدَيْهِ.[7]

إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة – التي التقطها المنهج الإسلامي من سفح الجاهلية – وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع. كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضا.. الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته وللمجتمع

[7] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

الفارسي أيضا. وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته! والشأن أيضا كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى! في السويد – وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة – كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد،حوالي عشرين لترا. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال،وما ينشره من إدمان فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور،وتحديد الاستهلاك الفردي،ومنع شرب الخمور في المحال العامة.. ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة،حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب «النبيذ والبيرة» فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف..!

أما في أمريكا،فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه،لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما،حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣. وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات. وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة.

وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه. وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن كذلك ٥٣٢،٣٣٥ نفسا. وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه. وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه.. وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون[٨].

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي.. ببضع آيات من القرآن.

---

[٨] – عن كتاب تنقيحات للسيد أبي الأعلى المودودي. نقلا عن كتاب : «ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد الندوي.

وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية،وفي علاج المجتمــع الإنســاني.. بــين منــهج اللّه،ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء! ولكي ندرك تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي،يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي حيث نجد «الخمر» عنصرا أساسيا من عناصــر المادة الأدبية كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها.

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر،أن أصبحت كلمة التجارة،مرادفة لبيع الخمر.. يقول لبيد:

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويقول عمرو بن قميئة:

إذ أسحب الريط والمروط إلى أدنى تجاري وأنفض اللمما

ووصف مجالس الشراب،والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي،وتطبعه طابعا ظاهرا.

يقول امرؤ القيس:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني أراقب خلّات من العيش أربعا

فمنهن قولي للندامى:ترفقوا يداجون نشاجا من الخمر مترعا

ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا يبادرن سربا آمنا أن يفزّعا

... إلخ ويقول طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبذلي وإنفاقي طريفي وتالدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

ويقول الأعشى:

فقد أشرب الراح قد تعلمين يوم المقام ويوم الظعن

وأشرب بالريف حتى يقال قد طال بالريف ما قد دجن

ويقول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير [٩]

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي...

ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم،والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث.. وفيهم عمر،وعلي،وحمزة،وعبد الرحمن بن عوف.. وأمثال هـذا الطراز من الرجال..

تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية. وتكفي عن الوصف المطول المفصل:

فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب،قَالَ:لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ،قَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا،فَنَزَلَتْ هَذِه الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَة:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}،قَالَ:فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْه،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شفَاءً،فَنَزَلَت الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ:{يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادي رَسُولِ الله ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلاةَ نَادَى:أَنْ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكْرَانُ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْه،فَقَالَ:اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شفَاءً،فَنَزَلَت الآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائدَة،فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْه،فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا"[١٠]..

وفي سبب نزول هذه الآية:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى » ترد روايتان يشترك في أحداثهما علي وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين. وسعد بن معاذ من الأنصار.

روى ابن أبي حاتم عَنْ سَعْد،قَالَ:"نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَات،صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ،فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى سَكَرْنَا،ثُمَّ افْتَخَرْنَا فَرَفَعَ رَجُلٌ فِي لِحَى بَعِيرٍ فَغَرَزَ بِه أَنْفَ سَعْد،فَكَانَ سَعْدٌ مَغْرُوزُ الأَنْف،وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحَرِّمَ الْخَمْرَ،فَنَزَلَتْ:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى"".[١١].

[٩] – قصران للنعمان بن المنذر كانت تتحدث بهما العرب في الجاهلية.

[١٠] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (١ / ١٨٩)(٣٧٨) صحيح

[١١] – تفسير ابن أبي حاتم – (٤ / ١٧١) (٥٣٩٢) صحيح

وروى ابن أبي حاتم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:"صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ،فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا،وَحَضَرَتِ الصَّلاةُ،فَقَدَّمُوا فُلانًا،قَالَ:فَقَرَأَ:"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ قَالَ:فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"".[١٢]

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي. فهي كانت والميسر،الظاهرتين البارزتين المتداخلتين،في تقاليد هذا المجتمع..

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة،التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبدا؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة،تتعلق بها تقاليد اجتماعية كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن وعلى مراحل،وفي رفق وتؤدة. وكسب المعركة.

دون حرب. ودون تضحيات. ودون إراقة دماء.. والذي أريق فقط هودنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين – حين سمعوا آية التحريم – فمجوها من أفواههم. ولم يبلعوها. كما سيجي ء! في مكة – حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان.. إلا سلطان القرآن – وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر. تدرك من ثنايا العبارة. وهي مجرد إشارة:

جاء في سورة النحل:«وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً»..

فوضع «السكر» وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب،في مقابل الرزق الحسن! ملمحا بهذا التقابل إلى أن السكر شيء. والرزق «الحسن» شيء آخر.. وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد! ولكن عادة الشراب،أو تقليد الشراب – بمعنى أدق – فقد كان أعمق من عادة فردية. كان تقليدا اجتماعيا،له جذور اقتصادية.. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة..

---

[١٢] – تفسير ابن أبي حاتم – (٤ / ١٧٠) (٥٣٩١) صحيح

وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان.. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان. إنما كان أولا سلطان القرآن..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر،وفي خبرة بالنفس البشرية،والأوضاع الاجتماعية..

بدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر،وفي خبرة بالنفس البشرية،والأوضاع الاجتماعية..

بدأ بآية البقرة ردا على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر:«يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. قُلْ:فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ،وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ.. وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما..»

وكانت هي الطرقة الأولى،ذات الصوت المسموع.. في الحس الإسلامي،وفي الضمير الإسلامي. وفي المنطق الفقهي الإسلامي.. فمدار الحل والحرمة.. أو الكراهية.. على رجحان الإثم أو رجحان الخير،في أمر من الأمور.. وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما.. فهذا مفرق الطريق..ولكن الأمر كان أعمق من هذا.. وقال عمر – رضي اللّه عنه –:« اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنا فِي الْخَمْرِ بَيانًا شِفاءً »..

عمر!!! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي! ثم حدثت أحداث – كالتي رويناها – ونزلت هذه الآية:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى،حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ»..

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل..

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة،بين التنفير من الخمر،لأن إثمها أكبر من نفعها،وبين التحريم البات،لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة:هي «قطع عادة الشراب» أو «كسر الإدمان».. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة. وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار.

وبينها فترات لا تكفي للشراب – الذي يرضي المدمنين – ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون! فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق.. صباحا ومساء.. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة.. وهنا يقف ضمير

المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب.. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة..

ومع ذلك.. فقد قال عمر رضي اللّه عنه – وهو عمر!!! – «اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر»..

ثم مضى الزمن. ووقعت الأحداث. وجاء الوعد المناسب – وفق ترتيب المنهج – للضربة الحاسمة. فترلت الآيتان في المائدة:«إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ،فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ،وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ،فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟»..

وانتهى المسلمون كافة. وأريقت زقاق الخمر،وكسرت دنالها في كل مكان.. بمجرد سماع الأمر..

ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم – حين سمعوا و لم يبلعوها وهي في أفواههم.وهم شاربون..

لقد انتصر القرآن. وأفلح المنهج. وفرض سلطانه – دون أن يستخدم السلطان!!! ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة،التي لا نظير لها في تاريخ البشر ولا مثيل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان،ولا في أي زمان؟

لقد تمت المعجزة،لأن المنهج الرباني،أخذ النفس الإنسانية،بطريقته الخاصة.. أخذها بسلطان اللّه وخشيته ومراقبته،وبحضور اللّه – سبحانه – فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان.. أخذها جملة لا تفاريق.. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة..

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا تملؤه بنشوة الخمر،وخيالات السكر،وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء.. في الهواء..

ملأ فراغها باهتمامات. منها:نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها،من تيه الجاهلية الأجرد،وهجيرها المتلظى،وظلامها الدامس،وعبوديتها المذلة،وضيقها الخانق،إلى رياض الإسلام البديعة،وظلاله الندية،ونوره الوضي ء،وحريته الكريمة،وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة! وملأ فراغها – وهذا هو الأهم – بالإيمان. بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل

البهيج. فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر،تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء..

وتعيش بقرب اللّه ونوره وجلاله.. وتذوق طعم هذا القرب،فتمج طعم الخمر ونشوتها وترفض خمارها وصداعها وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية! إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية وفتحها بمفتاحها،الذي لا تفتح بغيره وتمشى في حناياها وأوصالها وفي مسالكها ودروبها.. ينشر النور،والحياة،والنظافة،والطهر،واليقظة،والهمة،والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير،والخلافة في الأرض،على أصولها،التي قررها العليم الخبير،وعلى عهد اللّه وشرطه،وعلى هدى ونور..

إن الخمر – كالميسر. كبقية الملاهي. كالجنون بما يسمونه «الألعاب الرياضية» والإسراف في الاهتمام بمشاهدها.. كالجنون بالسرعة.. كالجنون بالسينما.. كالجنون «بالمودات» «والتقاليع».. كالجنون بمصارعة الثيران.. كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم،جاهلية الحضارة الصناعية! إن هذه كلها ليست إلا تعبيرا عن الخواء الروحي.. من الإيمان أولا.. ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانيا.. وليست إلا إعلانا عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية..ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ،كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا.. وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى «الجنون» المعروف،وإلى المرض النفسي والعصبي..وإلى الشذوذ..

إنها لم تكن كلمات.. هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة.. إنما كان منهج. منهج هذه الكلمات متنه وأصله. منهج من صنع رب الناس. لا من صنع الناس! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج،لا تؤدي إلى كثير! إنه ليست المسألة أن يقال كلام! فالكلام كثير. وقد يكتب فلان من الفلاسفة. أو فلان من الشعراء.

أو فلان من المفكرين. أو فلان من السلاطين! قد يكتب كلاما منمقا جميلا يبدو أنه يؤلف منهجا،أو مذهبا،أو فلسفة.. إلخ.. ولكن ضمائر الناس تتلقاه،بلا سلطان. لأنه «ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ»! فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان.. وذلك فوق ما في

طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور! فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج،غير منهج العليم الخبير؟

وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للنـــاس معـــالم لم يقمها الخلاق القدير؟

متى؟ متى ينتهون عن هذا الغرور!؟؟؟[13]



[13] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع [٢ /٦٦٣]

قال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصيباً منَ الْكتاب يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُريدُونَ أَنْ تَضلُّوا السَّبيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بأَعْدائكُمْ وَكَفى باللَّه وَليًّا وَكَفى باللَّه نَصيراً (٤٥) منَ الَّـــذينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلمَ عَنْ مَواضعه وَيَقُولُونَ سَمعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعنا لَيًّـــا بأَلْسنَتهمْ وَطَعْناً في الدِّين وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُـــمْ وَأَقْوَمَ وَلكنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكُفْرهمْ فَلا يُؤْمنُونَ إِلاَّ قَليلاً (٤٦) يا أَيُّهَا الَّذينَ أُوتُوا الْكتـــابَ آمنُوا بما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لما مَعَكُمْ منْ قَبْلِ أَنْ نَطْمسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْت وَكانَ أَمْرُ اللَّه مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفرُ أَنْ يُشْرَكَ به وَيَغْفرُ ما دُونَ ذلكَ لمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْركْ باللَّه فَقَد افْتَرى إِثْماً عَظيماً (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـــذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّه الْكَذبَ وَكَفى به إِثْماً مُبيناً (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصيباً منَ الْكتاب يُؤْمنُـــونَ بالْجبْت وَالطَّاغُوت وَيَقُولُونَ للَّذينَ كَفَرُوا هؤُلاء أَهْدى منَ الَّذينَ آمَنُـــوا سَـــبيلاً (٥١) أُولئكَ الَّذينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجدَ لَهُ نَصيراً (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصيبٌ منَ الْمُلْك فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ منْ فَضْله فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الْكتابَ وَالْحكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظيماً (٥٤) فَمنْهُمْ مَنْ آمَنَ به وَمنْهُمْ مَـــنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بجَهَنَّمَ سَعيراً (٥٥) إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بآياتنا سَوْفَ نُصْليهمْ نـــاراً كُلَّمـــا نَضجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ليَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزيزاً حَكيماً (٥٦) وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات سَنُدْخلُهُمْ جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ خالدينَ فيهـــا أَبَداً لَهُمْ فيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخلُهُمْ ظلاًّ ظَليلاً (٥٧) } [النساء]

ألا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ منْ أمْرِ هَؤُلاء الذينَ أُعْطُوا حَظّاً منَ الكُتُب السَّابقَة كَيْـــفَ حُرمُـــوا هدَايَتهَا،وَاسْتَبْدَلُوا بهَا ضدَّهَا،فَهُمْ يَخْتَارُونَ الضَّلاَلَةَ لأَنْفُسهمْ،وَيُريدُونَ أَنْ تَضـــلُّوا بهَـــا طَريقَ الحَقِّ القَويمِ،كَمَا ضَلُّوا هُمْ،وَهُمْ دَائبُو الكَيْد ليَرُدُّوكُمْ عَنْ دينكُمْ إن اسْتَطَاعُوا.

(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب } يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُـمْ لَـمْ يَحْفَظُـوا كِتَـابَهُمْ كُلَّهُ،لأنَّهُمْ لَمْ يَسْتَظْهِرُوهُ زَمَنَ التَّنْزِيلِ،كَمَا حَفِظَ المُسْلِمُونَ قُرآنَهُمْ،وَلَمْ يَكْتُبُوا مِنْهُ نُسَخاً مُتَعَدِّدَةً فِي العَصْرِ الأَوَّلِ حَتَّى إذَا فُقِدَ بَعْضُهَا قَامَ مَقَامَهَا بَعْضٌ آخَرُ).

وَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلاءِ اليَهُودَ أَعْدَاؤُكُمْ،وَهُوَ أَعْلَـمُ مِـنْكُمْ بِهِمْ،وَهُـوَ يُحَـذِّرُكُمْ مِنْهُمْ،وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ،وَكَفَى بِهِ نَصِيراً لِمَنِ اسْتَنْصَرَهُ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ أَعْرَفُ مِنْهُمْ بِأَعْدَائِهِمُ اليَهُودَ (الذينَ هَـادُوا)،وَإِنَّ فَرِيقـاً مِنْهُمْ يُمِيلُونَ الكَلاَمَ عَنْ مَعْنَاهُ،وَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ) وَيُرِيدُونَ بِهِ غَيْرَ المَقْصُودِ بِهِ،وَهُمْ إِنَّمَا يَفعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ،افْتِرَاءً عَلَى اللهِ،وَرَغْبَةً فِـي إِيْـذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ.وَيَقُولُونَ:سَمِعْنَا مَا قُلْتَ يَا مُحَمَّدُ،وَنَحْنُ لاَ نُطِيعُكَ فِيهِ.وَهَذَا أَبْلَغُ فِـي الكُفْـرِ وَالعِنَادَ لأَنَّهُمْ مُتَوَلُّونَ عَنْ كِتَابِ اللهِ،بَعْدَمَا عَقَلُوهُ،وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الإِثْمِ وَالعُقُوبَةِ عِنْدَ اللهِ.وَيَقُولُونَ:اسْمَعْ مَا نَقُولُ لَكَ لاَ سَمِعْتَ (أَيْ لاَ أَسْـمَعَكَ اللهُ دُعَاءً)،وَهُمْ يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ عَلَى النَّبِيِّ،مَعْ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ إِيهَامَ مَنْ حَوْلَهُمْ بِـأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ.مَعْ أَنَّ المُسْلِمِينَ حِينَمَا كَانُوا يَقُولُونَ هَذِهِ العِبَارَةَ إِنَّمَا كَانُوا يَقْصِـدُونَ بِهَا الدُّعَاءَ (لاَ أَسْمَعَكَ اللهُ مَكْرُوهاً).

وَكَانَ اليَهُودُ يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:(رَاعِنَا)،وَهُمْ يُوهِمُونَ مَنْ حَوْلَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ (أَرْعِنَا سَمْعَكَ)،أيْ انْتَبِهْ لِمَا نَقُولُ لَكَ.وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَيَبْـدُو وَكَـأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ سَبَّ النَّبِيِّ وَوَصْفَهُ بِالرُّعُونَةِ (وَرَاعِينُو بِالعِبْرِيَّةِ تَعْنِي الشِّرِّيرَ) وَهُـمْ إِنَّمَـا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً بِالدِّينِ الذي يُبَلِّغُهُ النَّبِيُّ عَنْ رَبِهِ إلى عِبَادِ اللهِ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ:سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا،لَكَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَهُـمْ وَأَفْضَلَ،وَلَكِنَّ اللهَ لَعَنَهُمْ وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَـبَبِ كُفْرِهِمْ،وَصَـرْفِهِمْ عَـنِ الخَيْـرِ وَالهُدَى،فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِيْمَاناً نَافِعاً لَهُمْ.(وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى المَقْطَعِ الأَخِيرِ:إِنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ بِالإِسْلاَمِ إِلاَّ قَلِيلُونَ).

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى أَهْلَ الكِتَابِ،مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،بِالإِيْمَانِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّـدٌ ﷺ مِنَ الكِتَابِ العَظِيمِ،الذي فِيهِ تَصْدِيقُ الأَخْبَارِ التي جَاءَتْ فِـي كُتُـبِهِمْ،مِنْ تَقْرِيـرِ

التَّوْحيد،وَالابْتعَاد عَنِ الشِّرْك،وَمنَ التَّبْشير بمُحَمَّد وَشَرِيعَته،وَيَتَّهَدَّدُهُمْ،إنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلكَ،بأنَّ اللهَ قَدْ يُعَاقِبُهُمْ بطَمْسِ وُجُوهِهِمْ،فَلا يَبْقَى لَهُمْ سَمْعاً وَلاَ بَصَراً وَلاَ أَنْفاً،وَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ إلى جهَة ظُهُورِهِمْ،فَيَمْشُونَ القَهْقَرَى إلى الوَرَاءِ،أوْ يَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَ الذينَ اعْتَدُوا في السَّبْت،بالاحْتيال في صَيْد الأَسْمَاك،وَقَدْ مَسَخَهُمُ اللهُ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ.

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى مَفْعُولٌ لاَ يُخَالَفُ وَلاَ يُمَانَعُ،وَهُوَ وَاقِعٌ لاَ مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ.

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى العبَادَ بأَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ لعَبْد جَاءَ اللهُ مُشْرِكاً بعبَادَته يَوْمَ القيَامَة،وَأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْك منَ الذُّنُوب،لمَنْ يَشَاءُ منْ عِبَادِه،وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَد ارْتَكَبَ ذَنْباً عَظِيماً،لاَ يَسْتَحقُّ مَعَهُ الغُفْرَانَ.

وَالشِّرْكُ ضَرْبَان:

- شِرْكٌ في الأُلُوهيَّة – وَهُوَ الشُّعُورُ بسُلْطَة وَرَاءَ الأَسْبَاب وَالسُّنَنِ الكَوْنيَّة لغَيْر الله.
- شِرْكٌ في الرُّبُوبيَّة – وَهُوَ الأَخْذُ بشَيءٍ منْ أَحْكَام الدِّين بالتَّحْليل وَالتَّحْرِيم عَنْ بَعْض البَشَر دُونَ الوَحْي.نَزَلَتْ هَذه الآيَةُ في اليَهُود وَالنَّصَارَى حينَ قَالُوا:نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحبَّاؤُهُ،وَحينَ قَالُوا:لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصَارَى.

(وَقيلَ إنَّها نَزَلَتْ في ذَمِّ مَدْحِ النَّفْس،وَتَزْكيَة الإنْسَان نَفْسَهُ بصُورَة عَامَّة).

فَقَالَ تَعَالَى:ألاَ تَعْجَبُ،يَا مُحَمَّدُ،منْ هَؤُلاءِ الكَافرِينَ الذينَ نُبَيِّنُ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ،فَيَرَوْنَهُ حَسَناً،وَيُثْنُونَ عَلَى أَنْفُسهِمْ مُزَكِّينَ إيَّاهَا،فَإنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ المَرْجِعُ فِي تَقْدير أَفْعَال العبَاد،لأَنَّهُ العَالَمُ بحَقَائق الأمُور وَغَوامضهَا،وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَكْتُمُهُ النَّاسُ وَمَا يُعْلنُونَهُ،وَهُوَ لاَ يَتْرُكُ لأحَد شَيئاً منَ العَمَل،وَلَوْ كَانَ مقْدَارَ الفَتيلِ في شقِّ نَوَاة التَّمْرَة،إلاَّ وَيَحْتَسبُهُ لَهُ.

انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ يَفْتَرِي هَؤُلاءِ الكَذبَ عَلَى الله،في تَزْكيَّة أَنْفُسهِمْ،وَادِّعَائهمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ الله وَأَحبَّاؤُهُ،وَأَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَات،وَكَفَى بهَذَا الذي يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ كَذباً ظَاهراً.

جَاءَ بَعْضُ رُؤَسَاءِ اليَهُود إلَى قُرَيْشٍ فَسَأَلْتَهُمْ قُرَيْش:أَهُمْ،وَمَا هُمْ عَلَيه منَ الكُفْر وَعبَادَة الأَصْنَام،خَيْرٌ أَمْ مُحَمَّدٌ وَمَا هُوَ عَلَيه منَ الإيمَان بالله؟ فَقَالَ اليَهُودُ:بَلْ قُرَيْشٌ أهْدَى

سَبيلاً.فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذه الآيَةَ،يَعيبُ فيهَا عَلَى اليَهُودِ قَوْلَهُمْ هذا،وَتَفْضِيلَهُمُ الكُفْرَ،وَعبَادَةَ الأَصْنَام،عَلَى هُدَى الله،وَدينه الحَقِّ.

وَالذينَ يُفَضِّلُونَ الكُفْرَ عَلَى الإِيمَان بالله وَحْدَهُ،إرْضَاءً للْكَافرينَ،وَاسْتنْصَاراً بهمْ،فَهؤُلاء يَلْعَنُهُمُ اللهُ.وَمَنْ لَعَنَهُ اللهُ،وَطَرَدَهُ منْ رَحْمَته،فَلاَ نَاصرَ لَهُ منْ غَضَب الله،وَلاَ وَليَّ لَهُ يَنْصُرُهُ منَ الذُّلِّ وَالعَذَاب.

يُنْكرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاء اليَهُود أنْ يَكُونَ لَهُمْ نَصيبٌ منَ المُلْك وَالتَّصَرُّف،بَعْدَ أنْ فَقَدُوهُ بكُفْرهمْ،وَظُلْمهمْ،وَطُغْيَانهمْ،وَإِيمَانهمْ بالجبْت وَالطَّاغُوت،ثُمَّ يَصفُهُمُ اللهُ تَعَالَى بالبُخْل وَالأَثَرَة،وَيَقُولُ:لَوْ أَنَّهُمْ كَانَ لَهُمُ المُلْكُ،وَحَقُّ التَّصَرُّف،لَمَا أَعْطَوا النَّاسَ شَيئاً،خَوْفاً منْ أنْ يَنْفَدَ مَا لَدَيْهمْ،وَلَحَصَرُوا مَنَافعَهُ في أَنْفُسهمْ.

إنَّ هَؤُلاَء يُريدُونَ أنْ يَضيقَ فَضْلُ الله بعبَاده،وَلاَ يُحبُّونَ أَنْ يَكُونَ لأمَّة فَضْلٌ أَكْثَرُ ممَّا لَهُمْ أَوْ مثْلُهُمْ،لمَا اسْتَحْوذَ عَلَيْهمْ منَ الغُرُور بنَسَبهمْ،وَتَقَاليدهمْ،مَعَ سُوء حَالهمْ.وَإنَّ حَسَدَهُمْ للرَّسُول ﷺ،عَلَى مَا رَزَقَهُ اللهُ منَ النُّبُوَّة العَظيمَة،هُوَ الذي مَنَعَهُمْ منَ التَّصْديق وَالإيمَان بمَا جَاءَ به الرَّسُولُ،لأَنَّهُ منَ العَرَب،وَلَيْسَ منْ بَني إسْرَائيلَ.

وَإنْ يَحْسُدُوا مُحَمَّداً عَلَى مَا أوتيَ،فَقَدْ أخْطَؤُوا إذْ أنَّ مَا أتَى اللهُ مُحَمَّداً لَيْس بدْعاً منَ الله،فَقَدْ آتَى اللهُ هَذا آلَ إبْرَاهيمَ،وَالعَرَبُ منْ ذُرِّيَّة إسْمَاعيلَ،فلمَاذَا يَعْجَبُونَ ممَّا آتَى اللهُ مُحَمَّداً،وَلَمْ يَعْجَبُوا ممَّا آتَى آلَ إبْرَاهيمَ؟

وَمَعَ ذَلكَ فَقَدْ آمَنَ فَريقٌ،منْ أَقْوَام هَؤُلاء الأَنْبيَاء،بمَا جَاءَهُمْ به أَنْبيَاؤُهُمْ،وَكَفَرَ فَريقٌ وَسَعَى في الأَرْض يُفْسدَ فيهَا،وَيَصُدُّ النَّاسَ عَنْ سَبيل الله،وَعَن اتِّبَاع الحَقِّ،وَكَفَى بالنَّار عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرهمْ وَعنَادهمْ،وَمُخَالَفَتهمْ كُتُبَ الله وَرُسُلَهُ.

يُخْبرُ اللهُ تَعَالَى:بأَنَّهُ سَيُعَاقبُ الكَافرينَ بآيَات الله وَبرُسُله،بإحْرَاقهمْ في نَار جَهَنَّمَ،وَكُلَّمَا احْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ أَبْدَلَهُمْ غَيْرَها ليَسْتَمرُّوا في تَحَسُّس العَذَاب وَآلامه،وَاللهُ عَزيزٌ لاَ يَتَحَدَّاهُ أَحَدٌ،حَكيمٌ في تَصَرُّفه،يَعْرفُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ للْعُقُوبَة فَيُعَاقبُهُ،وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ للثَّوَاب فَيُثيبُهُ.

وَالذينَ صَدَّقُوا بمَا جَاءَهُمْ منْ رَبِّهمْ،وَعَملُوا الأَعْمَالَ الصَّالحَةَ،فَإنَّ اللهَ سَيُثيبُهُمْ عَلَى إيمَانهمْ وَعَمَلهمُ الصَّالحُ،بإدْخَالهمُ الجَنَّةَ التي تَجْري في أَرْضهَا الأَنْهَارُ،وَيَبْقُونَ فيهَا

خَالدينَ أَبَداً،لاَ يَحُولُونَ عَنْهَا وَلاَ يَزُولُونَ،وَلَهُمْ فيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ،منَ الحَيْضِ وَالـدَّنَسِ وَالأَذَى،وَالأَخْلاَقِ الرَذِيلَة،وَالصِّفَاتِ النَّاقِصَة،وَيُدخِلُهُمْ فِي ظِلٍّ وَارِفٍ كَثِيفٍ لاَ حَرَّ فِيـهِ وَلاَ قَرَّ.[14]

ابتداء من هذا الدرس في السورة،تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن بالجماعـة المسـلمة،في مواجهة الجاهلية المحيطة بها – واليهود من أهل الكتاب خاصة – تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل..وهي هي..والمعسكرات المعاديـة هي هي كذلك! المعسكرات التي تحدثنا عنها في تقديم سورة البقرة [15]،وفي تقديم سـورة آل عمران [16]،وفي تقديم هذه السورة كذلك[17]

ابتداء من هذا الدرس تبدأ المعركة الخارجية.معركة الجماعة المسلمة مع المعسكرات المعادية من حولها..

ولكن هذا في الحقيقة ليس بدء المعركة.فكل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية ومحو الملامح الجاهلية – في المجتمع المسلم الذي التقطـه المنهج الرباني من سفح الجاهلية – وتخطيط وتثبيت الملامح الإسلامية الجديـدة في هـذا المجتمع..كل ذلك لم يكن بعيدا عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة وفي الجزيرة عامة..إنمـا كـان التمهيـد الحقيقـي لها،والاسـتعداد الحقيقـي لمواجهتها..كانت تلك معركة البناء.بناء هذا المجتمع الجديد،على أسس المنهج الإسـلامي الجديد كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله،ويتفوق عليها.

وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولا إلى بنـاء هـذا المجتمـع مـن داخله.بناء عقيدته وتصوراته،وأخلاقه ومشاعره،وتشريعاته وأوضاعه،إلى جانـب تعلـيم الجماعة المسلمة كل شيء عـن طبيعـة أعدائها،ووسـائلهم،وتحذيرها مـن كيـدهم ومكرهم،وتوجيهها إلى المعركة معهـم بقلـوب مطمئنـة،وعيون مفتوحـة،وإرادات

---

[14] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٣٧، بترقيم الشاملة آليا)

[15] – الجزء الأول ص ٢٧ – ٣٥.

[16] – الجزء الثالث ص ٣٤٩ – ٣٥٦.

[17] – الجزء الرابع : ص ٥٥٤ – ٥٧١.

محشودة،ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء..كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة،سواء بسواء.

لقد كان القرآن فيها جميعا،يخوض المعركة بالجماعة المسلمة،في كل جبهة..كان يخوضها في الضمائر والمشاعر،حيث ينشيء فيها عقيدة جديدة،ومعرفة بربها جديدة،وتصورا للوجود جديدا،ويقيم فيها موازين جديدة،وينشيء فيها قيما جديدة ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع وينشيء ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة..ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج..اليهود والمنافقين والمشركين..وهي على أتم استعداد للقائهم،والتفوق عليهم بمتانة بنائها الداخلي الجديد:الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء..

ولقد كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله – بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة – هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي – بفضل المنهج القرآني الرباني – قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا على العموم! بل هو لم يكن قط تفوقا عسكريا واقتصاديا – ماديا – فقد كان أعداء المعسكر الإسلامي دائما أكثر عددا،وأقوى عدة،وأغنى مالا،وأوفر مقدرات مادية على العموم! سواء في داخل الجزيرة العربية،أو في خارجها في زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك..ولكن التفوق الحقيقي كان في ذلك البناء الروحي والخلقي والاجتماعي – ومن ثم السياسي والقيادي – الذي أسسه الإسلام بمنهجه الرباني المتفرد.

وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي – ومن ثم السياسي والقيادي – اجتاح الإسلام الجاهلية..اجتاحها أولا في الجزيرة العربية.واجتاحها ثانيا في الإمبراطوريتين العظيمتين الممتدتين حوله:إمبراطوريتي كسرى وقيصر..ثم بعد ذلك في جوانب الأرض الأخرى.سواء كان معه جيش وسيف،أم كان معه مصحف وأذان! ولولا هذا التفوق الساحق ما وقعت تلك الخارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيرا.حتى في الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة.كزحف التتار في التاريخ القديم.وزحف الجيوش الهتلرية في التاريخ الحديث..

ذلك أنه لم يكن اكتساحا عسكريا فحسب.ولكنه كان اكتساحا عقيديا.ثقافيا.حضاريا كذلك! يتجلى فيه التفوق الساحق الذي يطوي – من غير إكراه – عقائد الشعوب ولغاها،وتقاليدها وعاداها..الأمر الذي لا نظير له على الإطلاق في أي اكتساح عسكري آخر،قديما أو حديثا! لقد كان تفوقا «إنسانيا» كاملا.تفوقا في كل خصائص «الإنسانية» ومقوماها.كان ميلادا آخر للإنسان.

ميلاد إنسان جديد غير الذي تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد.ومن ثم صبغ البلاد التي غمرها هذا المد بصبغته وترك عليها طابعه الخاص وطغى هذا المد على رواسب الحضارات التي عاشت عشرات القرون من قبل في بعض البلاد.كالحضارة الفرعونية في مصر.وحضارة البابليين والأشوريين في العراق،وحضارة الفينيقيين والسريان في الشام.لأنه كان أعمق جذورا في الفطرة البشرية وأوسع مجالا في النفس الإنسانية،وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات في حياة بني الإنسان،من كل تلك الحضارات.

وغلبة اللغة الإسلامية واستقرارها في هذه البلاد،ظاهرة عجيبة،لم تستوف ما تستحقه من البحث والدراسة والتأمل،وهي في نظري أعجب من غلبة العقيدة واستقرارها.إذ أن اللغة من العمق في الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية،بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة! وليس الأمر في هذا هو أمر «اللغة العربية».فاللغة العربية كانت قائمة ولكنها لم تصنع هذه المعجزة في أي مكان على ظهر الأرض – قبل الإسلام – ومن ثم سميتها «اللغة الإسلامية» فالقوة الجديدة التي تولدت في اللغة العربية،وأظهرت هذه المعجزة على يديها،كانت هي «الإسلام» قطعا! وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة في البلاد المفتوحة (المفتوحة للحرية والنور والطلاقة) اتجهت إلى التعبير عن ذاها – لا بلغاها الأصلية – ولكن باللغة الجديدة.لغة هذا الدين.اللغة الإسلامية.وأنتجت بهذه اللغة في كل حقل من حقول الثقافة نتاجا تبدو فيه الأصالة ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير في لغة غريبة – غير اللغة الأم – لقد أصبحت اللغة الإسلامية هي اللغة الأم فعلا لهذه العبقريات..ذلك أن الرصيد الذي حملته هذه اللغة كان من الضخامة أولا ومن ملاصقة الفطرة ثانيا بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها،من ثقافاها القديمة.ومن لغاها القديمة

أيضا! لقد كان هذا الرصيد هو رصيد العقيدة والتصور ورصيد البناء الروحي والعقلي والخلقي والاجتماعي الذي أنشأه المنهج الإسلامي في فترة وجيزة.وكان من الضخامة والعمق واللصوق بالفطرة،بحيث أمد اللغة – لغة الإسلام – بسلطان لا يقاوم.كما أمد الجيوش – جيوش الإسلام – بسلطان لا يقاوم كذلك! وبغير هذا التفسير يصعب أن نعلل تلك الظاهرة التاريخية الفريدة.وعلى أية حال فهذا موضوع يطول شرحه.فحسبنا منه هذه اللمحة في سياق الظلال..

منذ هذا الدرس في هذه السورة تبدأ المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة..ففي هذا الدرس تعجيب من حال اليهود وتصرفاتهم في مواجهة الدين الجديد والجماعة التي تمثله.

وفي الدرس الذي يليه بيان لوظيفة الجماعة المسلمة،وطبيعة منهجها،وحد الإسلام،وشرط الإيمان،الذي يتميز به منهجها وحياتها ونظامها..وفي الدرس الذي يليه دعوة لهذه الجماعة للذود عن منهجها ووضعها ووجودها وكشف للمنافقين المندسين فيها وبيان لطبيعة الموت والحياة وقدر اللّه الذي يجري بهما وهو جزء من تربية هذه الجماعة،وإعدادها لوظيفتها وللمعركة مع أعدائها..وفي الدرس الذي يليه مزيد من الحديث عن المنافقين وتحذير للجماعة المسلمة من الانقسام في شأنهم،أو الدفاع عن تصرفاتهم.ثم تفصيل للإجراءات التي تواجه بها الجماعة المسلمة شتى المعسكرات من حولها – أي لقواعد قانون المعاملات الدولية – وفي الدرس الذي يليه نجد نموذجا لرفعة الإسلام في معاملته ليهودي فرد في المجتمع الإسلامي!..

والدرس الذي يليه جولة مع الشرك والمشركين،وتوهين للأسس التي يقوم عليها المجتمع المشرك في الجزيرة..ويتوسط هذه المعركة لمحة من التنظيم الداخلي،ترتبط بأوائل السورة في شأن الأسرة..ثم يجيء الدرس الأخير خاصا بالنفاق والمنافقين يهبط بهم إلى الدرك الأسفل من النار! وهذه الإشارات الخاطفة تبين لنا طبيعة مجالات المعركة وجوانبها المتعددة – في الداخل والخارج..وطبيعة التوافق والتكامل،بين المعركة الداخلية والمعركة الخارجية في

حياة المجتمع الإسلامي الأول..وهي هي بذاتها معركة الأمة المسلمة اليوم وغدا في أساسها وحقيقتها.[18]



[18] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٦٧٢]

إنشاء القرآن للأمة المسلمة

إن القرآن – وهو ينشيء هذه الأمة وينشئها – وهو يخرجها إلى الوجود إخراجا.كما قال اللّه تعالى في التعبير القرآني الدقيق:{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١١٠]..

إن القرآن وهو ينشيء هذه الأمة من حيث لم تكن وينشئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر:«خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»..ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث:حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معا..فقد كانت – على التحقيق – إنشاء وتنشئة،كانت ميلادا جديدا للأمة بل ميلادا جديدا «للإنسان» في صورة جديدة! ولم تكن مرحلة في طريق النشأة ولا خطوة في سبيل التطور،ولا حتى وثبة من وثبات النهضة! إنما كانت – على وجه التحديد – «نشأة»! و«ميلادا» للأمة العربية وللإنسان كله! وحين ننظر إلى الشعر الجاهلي – والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية – وهو ديوان العرب،الذي تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود،والكون والإنسان والخلق والسلوك كما تضمن معالم حياتهم،ومكنون مشاعرهم،ومجموع تصوراتهم ولباب ثقافتهم وحضارتهم وكينونتهم كلها بالاختصار..

حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التي يتضمنها هذا الديوان في ظل القرآن وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة،وللكون والإنسان ومن قيم في الحياة الإنسانية ومن نظام للمجتمع ومن تصور لغاية الوجود الإنساني.ومن تنظيم واقعي يقوم على أساس هذا التصور..

ثم ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده..في ظل تلك التصورات الجاهلية التي تتمثل في ديوانها.ثم في ظل هذه التصورات القرآنية التي تمثل المنهج الرباني..

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية..في ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية:يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد..أنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة! كانت «إخراجا» من صنع اللّه كتعبير القرآن الدقيق..وكانت أعجب نشأة وأغرب

إخراج..فهي المرة الأولى والأخيرة – فيما نعلم – التي تنبثق فيها أمة من بين دفتي كتاب! و«تخرج» فيها حياة من خلال الكلمات! ولكن لا عجب..فهذه الكلمـــات..كلمـــات اللّه..

ومن أراد المجادلة والمماحلة،فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن «يخرجها» اللّه بكلماته وقبل أن ينشئها اللّه بقرآنه؟

إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية! ولكن أين كانت في الوجود «الإنساني»؟ أيـــن كانت في سجل الحضارة البشرية؟ أين كانت في التاريخ العالمي؟ أين كانت تجلس علـــى المائدة العالمية الإنسانية؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة،فيعرف باسمها ويحمل طابعها؟

لقد «نشأت» هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ونشئت تنشئتها بهذا المنهج القـــويم وقـــادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب اللّه الذي في يدها،وبمنهجه الذي طبع حياتها..لا بشيء آخر..وأمامنا التاريخ! وقد صدقها اللّه وعده وهو يقول للعرب:«لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَـــيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ..أَفَلا تَعْقِلُونَ»؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض وكان لها دورها في التاريخ وكـــان لها «وجود إنساني» ابتداء،وحضارة عالمية ثانيا..ذلك بينما يريد جماعة مـــن الحمقـــى أن يرفضوا نعمة اللّه هذه على الأمة العربية ويجحدوا فضل اللّه في أن جعل كلمته الأخـــيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم..ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة – يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذي ألبسهم اللّه إياه وأن يمزقوا هذه الراية التي قادتهم إلى الذكر والمجد..بل إلى الوجود يوم أخرج اللّه منهم الأمة المسلمة! نقول..إن القرآن حـــين كان «ينشى ء» هذه الأمة و«ينشئها»..ويخطط ويثبت ملامـــح الإســـلام الجديـــدة،في الجماعة المسلمة – التي التقطها من سفح الجاهلية – ويطمس ويمحو ملامح الجاهليـــة في حياتها ونفوسها ورواسبها..وينظم مجتمعها – أو يقيمه ابتداء – علـــى أســـاس المـــيلاد الجديد..

وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة في مواجهة الجاهليـــة الراســـبة في نفوســـها وأوضاعها من مخلفات البيئة التي التقطها المنهج الرباني منها وفي مواجهة الجاهلية الرابضـــة

فيها ومن حولها – ممثلة في يهود المدينة ومنافقيها ومشركي مكة وما حولها – والمعركتان موصولتان في الزمان والمكان! حين كان القرآن يصنع ذلك كله..كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح،ببيان شرط الإيمان وحدّ الإسلام ويربط بهذا التصور – في هذه النقطة بالذات – نظامها الأساسي،الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس،لتبين للناس،وتقودهم إلى اللّه..

نظامها الرباني..وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي،قائما ومنبثقا من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحدّ الإسلام! إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها والطريقة التي تتلقى بها والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى،وترد إليه ما يجدّ من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها والسلطة التي تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها..ويقول:إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام..

وعندئذ يلتقي «النظام الأساسي» لهذه الأمة بالعقيدة التي تؤمن بها..في وحدة لا تتجزأ ولا تفترق عناصرها..

وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقا كاملا..وهذه هي القضية التي تبدو،بعد مطالعة هذا الدرس،بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم» فيها! إنه يقول للأمة المسلمة:إن الرسل أرسلت لتطاع – بإذن اللّه – لا لمجرد الإبلاغ والإقناع:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»..

ويقول لها:إن الناس لا يؤمنون – ابتداء – إلا أن يتحاكموا إلى منهج اللّه ممثلا – في حياة الرسول ﷺ – في أحكام الرسول.وباقيا بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ولا يكفي أن يتحاكموا إليه – ليحسبوا مؤمنين – بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين:«فَلا وَرَبِّكَ..لا يُؤْمِنُونَ..حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ،ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»..فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها:إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – أي إلى غير شريعة اللّه – لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله.فهو زعم كاذب.يكذبه أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ

آمَنُوا بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ،يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً».

ويقول لها:إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل اللّه والتحاكم إلى رسول اللّه:«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ:تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ،رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».

ويقول لها:إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي،أن تطيع اللّه – عز وجل – في هذا القرآن – وأن تطيع رسول اللّه – ﷺ – في سنته – وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»..

ويقول لها:إن المرجع،فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة،والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية..إن المرجع هو اللّه ورسوله..أي شريعة اللّه وسنة رسوله:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْ ءٍ،فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»..

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك،أبد الدهر،في حياة الأمة المسلمة..وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي،الذي لا تكون مؤمنة إلا به،ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه..إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك،ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى اللّه ورسوله..شرط الإيمان وحد الإسلام..شرطا واضحا ونصا صريحا:«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»..

ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ،وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»

من أن اليهود وصموا بالشرك باللّه،لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون اللّه – لا لأنهم عبدوهم – ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع – ابتداء من عند أنفسهم – فجعلوا بذلك مشركين..الشرك الذي يغفر اللّه كل ما عداه.حتى الكبائر..«وإن زنى وإن سرق.وإن شرب الخمر»..فرد الأمر كله إلى إفراد اللّه – سبحانه – بالألوهية.ومن ثم إفراده بالحاكمية.فهي أخص خصائص الألوهية.وداخل

هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا.ويطمع أن يغفر لـــه ذنوبـــه ومنـــها كبائره..أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره اللّه أبدا..إذ هو شرط الإيمـــان وحد الإسلام.«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..»

هذا هو الموضوع الخطير الذي يتناوله هذا الدرس.بالإضافة إلى بيان وظيفة الأمة المســـلمة في الأرض.

من إقرار مبادئ العدل والخلق على أساس منهج اللّه القويم السليم:«إِنَّ اللَّهَ يَـــأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها.وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ..إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ..إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً» [19]..



[19] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٦٨٥]

قال تعالى:{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)} [النساء:٨٨،٨٩]..

فَمَا لَكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِئَتَينِ فِي الْمُنَافِقِينَ،وَاخْتَلَفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ،مَعَ تَظَاهُرِ الأَدِلَّةِ عَلَيهِ،فَلَيْسَ لَكُمْ أنْ تَخْتَلِفُوا فِي شَأنِهِمْ،وَكَيْفَ تَفْتَرِقُونَ فِي شَأنِهِمْ وَقَدْ صَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الحَقِّ الذي أَنْتُمْ عَلَيهِ،بِمَا كَسَبُوا مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ،وَاجْتَرَحُوا مِنَ المَعَاصِي،وَقَدْ أَرْكَسَهُمُ اللهُ،وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ نَاكِسِي الرُّؤُوسِ،بِسَبَبِ إيغَالِهِمْ فِي الضَّلالِ،وَبُعْدِهِمْ عَنِ الحَقِّ؟ وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِكُمْ أنْ تُبَدِّلُوا سُنَنَ اللهِ،لأنَّ مَنْ قَضَتْ سُنَنُ اللهِ فِي خَلْقِهِ أنْ يَكُونَ ضَالاً عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ،فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ بِسُلُوكِهَا إلى الحَقِّ.

وَسَبِيلُ الفِطْرَةِ أنْ يَعرِضَ الإِنْسَانُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ عَلَى سُنَنِ العَقْلِ،وَيَتْبَعَ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الحَقُّ الذي فِيهِ مَنْفَعَتُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنيا.وَأَكْثَرُ مَا يَصُدُّ الإِنْسَانَ عَنْ سَبِيلِ الفِطْرَةِ هُوَ التَّقْلِيدُ وَالغُرُورُ وَظَنُّ الإِنْسانِ أَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْمَلُ مِمَّا هُوَ فِيهِ،وَبِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ العَقْلِ وَالنَّظَرِ فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ،وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ.

وَهَؤُلاءِ لاَ يَقْنَعُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلالَةِ وَالغِوَايَةِ،بَلْ يَطْمَعُونَ فِي أنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ،وَهُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلاَلَةَ لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا،وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ،فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ وَنُصَرَاءَ وَأَصدقاءَ،حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ،لِيُثْبِتُوا صِدْقَ إِيمَانِهِمْ،فَإِنْ رَفَضُوا الهِجْرَةَ (تولَّوا) وَلَزِمُوا مَوَاضِعَهُمْ،وَأَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلاَ تُوَالُوهُمْ،وَلاَ تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى عَدُوّ لَكُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ.[٢٠]

---

[٢٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨١، بترقيم الشاملة آليا)

إنهم قد كفروا..على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون،ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين..وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد.فالـــذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين.ولا بد له من عمل وسعي،ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر.ليكونوا كلهم سواء.

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين..وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين.وإلا فـــلا عـــبرة بكلمات اللسان،وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق:والقرآن يلمس مشـــاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم،وهو يقول لهم:«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَـــرُوا فَتَكُونُـــونَ سَواءً»..

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر.وبالنقلة الضـــخمة الـــتي يجدونها في أنفسهم،بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية..ثم في الإسلام.وكان الفرق واضحا بارزا في مشاعرهم وفي واقعهم،تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط – سفح الجاهلية – الذي التقطهم منه الإسلام فسار بهم صعدا في المرتقى الصاعد،نحو القمة السامقة.

ومن ثم يتكىء المنهج القرآني على هذه الحقيقة فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء:«فَلا تَتَّخِذُوا مِـــنْهُمْ أَوْلِيـــاءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلا تَتَّخِـــذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً»..

ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم..أنه كانت ما تزال للروابط والوشـــائج العائليـــة والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا – وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها.كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته.

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة،أو روابط الـــدم والقرابـــة.أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة،أو روابط المصالح الاقتصـــادية في التجـــارة

وغير التجارة..إنما تقوم الأمة على العقيدة وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة.

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام،وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب..ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول..لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام وينضموا إلى المجتمع المسلم – أي إلى الأمة المسلمة – حيث تكون هجرتهم للّه وفي سبيل اللّه.من أجل عقيدتهم،لا من أجل أي هدف آخر ولإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر..بهذه النصاعة.

وبهذا الحسم.وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى،أو مصالح أخرى،أو أهداف أخرى..فإن هم فعلوا.فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم..في دار الحرب..وهاجروا إلى دار الإسلام،ليعيشوا بالنظام الإسلامي،المنبثق من العقيدة الإسلامية،القائم على الشريعة الإسلامية..إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم،مواطنون في الأمة المسلمة.وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة،فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال:«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ (أي أسرى) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ،وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذي يرجح عندنا،أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة.إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى.

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له فلا يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته.ولهم – حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته – أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام.في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين.فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالا للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا! وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته.وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم وأنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا

تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارا نهارا في العقيدة..ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال.لا يتسامح مع من يقولون:إنهم يوحدون اللّه ويشهدون أن لا إله إلا اللّه.ثم يعترفون لغير اللّه بخاصية من خصائص الألوهية،كالحاكمية والتشريع للناس فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون،لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه والمسيح ابن مريم..لا لأنهم عبدوهم.ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال،وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم! ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون.لأنهم شهدوا أن لا إله إلا اللّه،وأن محمدا رسول اللّه.ثم بقوا في دار الكفر،يناصرون أعداء المسلمين!

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا.إنما هو تميع.والإسلام عقيدة التسامح.ولكنه ليس عقيدة «التميع».إنه تصور جاد.ونظام جاد.والجد لا ينافي التسامح.ولكنه ينافي التميع.[٢١]



[٢١] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٧٣١]

قال تعالى:{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } [النساء:١١٣]

لَقَدْ حَاوَلَ أَصْحَابُ بَنِي أُبَيْرِق تَبْرِئَةَ صَاحِبِهِمْ مِنْ سَرِقَةِ الدِّرْعِ،وَعَزَوْا إليه الصَّلاَحَ والتُّقَى،وَلاَمُوا صَاحِبَ الدِّرْعِ لاتِّهَامِهِ قَوْماً صُلَحَاءَ،وَهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا كَانُوا يُرِيدُونَ أنْ يُضِلُّوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى،وَكَشَفَ لَهُ حَقِيقَةَ مَا وَقَعَ.وَهُؤلاَءِ الذِينَ حَاوَلُوا تَضْلِيلَ رَسُولِ اللهِ،إِنَّمَا يُضِلُّونَ أَنْفُسَهُمْ،فَقَدْ عَصَمَ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي الخَطَأ،وَأيَّدَهُ بِفَضْلِهِ،وَأَنْزَلَ عَلَيهِ القُرْآنَ (الكِتَابَ) وَالحِكْمَةَ (وَقِيلَ أنَّ مَعْنَى الحِكْمَةِ هُنَا مَا تَضَمَّنَتْهُ سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ) وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الوَحْي عَلَيهِ،وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَظِيماً عَلَى رَسُولِهِ الكَرِيمِ.[22]

إن هذه المحاولة ليست إلا واحدة من محاولات كثيرة،شتى الألوان والأنواع مما بذله أعداء هذا الرسول الكريم ليضلوه عن الحق والعدل والصواب.ولكن اللّه – سبحانه – كان يتولاه بفضله ورحمته في كل مرة.

وكان الكائدون المتآمرون هم الذين يضلون ويقعون في الضلالة..وسيرة رسول اللّه – ﷺ – حافلة بتلك المحاولات ونجاته وهدايته وضلال المتآمرين وخيبتهم.

واللّه – سبحانه – يمتن عليه بفضله ورحمته هذه ويطمئنه في الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئا.بفضل من اللّه ورحمة.

وبمناسبة المنة في حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم بريء وتبرئة جارم،وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة..تجيء المنة الكبرى..منة الرسالة:«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ.وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً».

[22] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

وهي منة اللّه على «الإنسان» في هذه الأرض.المنة التي ولـــد الإنســـان معهـــا مـــيلادا جديدا.ونشأ بها «الإنسان» كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى..

المنة التي التقطت البشرية من سفح الجاهلية،لترقى بها في الطريـــق الصـــاعد،إلى القمـــة السامقة.عن طريق المنهج الرباني الفريد العجيب..

المنة التي لا يعرف قدرها إلا الذي عرف الإسلام وعرف الجاهليـــة - جاهليـــة الغـــابر والحاضر - وذاق الإسلام وذاق الجاهلية..

وإذا كانت منة يذكر اللّه بها رسوله - ﷺ - فلأنه هو أول من عرفها وذاقها.وأكبر مـــن عرفها وذاقها.وأعرف من عرفها وذاقها..«وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ.وَكانَ فَضْـــلُ اللَّـــهِ عَلَيْكَ عَظِيماً»[٢٣].



[٢٣] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٧٥٦]

قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٧]..

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:إِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ انْتِقَاماً مِنْهُ،وَلاَ طَلَباً لِنَفْعٍ،وَلاَ دَفْعاً لِضَرَرٍ،لأَنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ،وَهُوَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّاسِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِأَنْعُمِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ،فَهُوَ قَدْ أَنْعَمُ عَلَيْهِمْ،بِالعَقْلِ وَالحَوَاسِّ وَالوِجْدَانِ،لَكِنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوهَا فِي غَيْرِ مَا خُلِقَتْ لَهُ،وَهُوَ أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً لِلاهْتِدَاءِ بِهَا إِلَى وُجُودِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَشَكَرُوا لَطَهُرَتْ أَرْوَاحُهُمْ،وَظَهَرَتْ آثَارُ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ،وَسَائِرِ أَعْمَالِهِمْ،التِي تُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ،وَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللهِ.وَاللهُ يَجْعَلُ ثَوَابَ المُؤْمِنِينَ الشَّاكِرِينَ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِأَحْوَالِهِمْ،وَيُنِيلُهُمْ مِنَ الدَّرَجَاتِ،أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ،جَزَاءَ شُكْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ.[24]

نعم! ما يفعل اللّه بعذابكم – إن شكرتم وآمنتم؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان..إنها ليست شهوة التعذيب،ولا رغبة التنكيل ولا التذاذ الآلام،ولا إظهار البطش والسلطان..تعالى اللّه عن ذلك كله علوا كبيرا..فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان فهنالك الغفران والرضوان.وهناك شكر اللّه – سبحانه – لعبده.وعلمه – سبحانه – بعبده..

وشكر اللّه – سبحانه – للعبد،يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة..إنه معلوم أن الشكر من اللّه – سبحانه – معناه الرضى،ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب..ولكن التعبير بأن اللّه – سبحانه – شاكر..تعبير عميق الإيحاء! وإذا كان الخالق المنشئ،المنعم المتفضل،الغني عن العالمين..يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم..وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم..إذا كان الخالق المنشئ،المنعم المتفضل،الغني عن العالمين يشكر..فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين المغمورين بنعمة اللّه..تجاه الخالق الرازق المنعم

[24] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٤٠، بترقيم الشاملة آليا)

المتفضل الكريم؟! ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب.ألا إنها الإشارة المنيرة إلى معالم الطريق..الطريق إلى اللّه الواهب المنعم،الشاكر العليم..

وبعد..فهذا جزء واحد،من ثلاثين جزءا،من هذا القرآن..يضم جناحيه على مثل هذا الحشد العجيب من عمليات البناء والترميم والتنظيف والتقويم.وينشئ في عالم النفس،وفي واقع المجتمع،وفي نظام الحياة،ذلك البناء الضخم المنسق العريض.ويعلن مولد الإنسان الجديد الذي لا تعرف له البشرية من قبل ولا من بعد مثيلا ولا شبيها،في مثاليته وواقعيته.وفي نظافته وتطهره،مع مزاولة نشاطه الإنساني في شتى الميادين..هذا الإنسان الذي التقطه المنهج الرباني من سفح الجاهلية،ودرج به في المرتقى الصاعد،إلى القمة السامقة.في يسر.وفي رفق وفي لين..[٢٥]



[٢٥] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٧٨٦]

إن هذه السورة(سورة النساء) تعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح،في ضمير الجماعة المسلمة التي التقطها الإسلام من سفح الجاهلية،ليرقى بها صعدا في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة وتخليص هذا الضمير من رواسب الجاهلية،التي تغبش الصورة! أو – كما قلنا هناك – محو الملامح الجاهلية وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة..

ثم تعالج – على ضوء التصور الجديد – ضمير الأمة المسلمة،وخلقها،وتقاليدها الاجتماعية،وتخلصه من رواسب الجاهلية في الخلق والتقاليد كما خلصته من رواسب الجاهلية في التصور والاعتقاد.وتنظم حياتها الاجتماعية،وروابطها العائلية،على أساس المنهج الرباني القويم.

وهي – في أثناء هذا وذلك – تواجه العقائد المنحرفة،وتواجه أصحاب هذه العقائد،سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى وتصحح هذه العقائد وتقرر وجه الحق في الانحرافات التي تفسدها.

ثم تخوض بالجماعة المسلمة معركة حامية مع أهل الكتاب بصفة عامة،واليهود من أهل الكتاب بصفة خاصة.فهم الذين وقفوا للدعوة الجديدة منذ أن وصل رسول اللّه – ﷺ – إلى المدينة،ومنذ أن تبين اليهود خطر هذه الدعوة الجديدة على كيانهم ووضعهم الممتاز في يثرب،ودعاويهم في التفرد بالقرب من اللّه،وأنهم شعب اللّه المختار،ومن ثم حربهم للدعوة الجديدة بكل سلاح! والسورة تكشف طبيعتهم ووسائلهم،وتاريخهم مع أنبيائهم أنفسهم،مما يصور موقفهم من دعوة الحق أياً كان ممثلها،ولو كان هو نبيهم وقائدهم ومنقذهم!

كذلك تبين السورة للأمة المسلمة – بعد هذا كله – جسامة التبعة الملقاة على عاتقها،وضخامة الدور المقدر لها،وحكمة إعدادها وتطهيرها وتصفية رواسب الجاهلية في ضميرها وفي حياتها،وضرورة أخذها هذا الأمر بما يستحق من يقظة وقوة،وأداء للتكاليف

التي يتطلبها هذا الدور الضخم،بما في ذلك من جهاد في عالم النفس وجهاد في عالم الواقع،وتضحيات ثقال..

وقد سارت السورة في طريقها هذا،في كل حلقاتها الماضية،وبقيتها في هذا الجزء،بقية من هذا المنهج،على نفس الطريق..

يبدأ هذا الجزء بطرف من تطهير النفس وتطهير المجتمع،وإشاعة الثقة في جو الجماعة المسلمة،واستبعاد قالة السوء فيها – مع الانتصاف من الظلم – والحض على العفو والسماحة،وتقرير أن اللّه لا يحب الجهر بالسوء – إلا من مظلوم ينتصف لظلمه – ومع هذا فإنه سبحانه يحب العفو عن السوء،وهو «عفو» «قدير».

ثم بيان لطبيعة التصور الإسلامي،الذي يجعل دين اللّه واحدا،ويجعل رسل اللّه موكبا يحمل هذا الدين الواحد ويجعل التفرقة بين الرسل،والتفرقة بين ما جاءوا به كفرا صراحا..هذا البيان يجيء بصدد التنديد باليهود – من أهل الكتاب – الذين ينكرون النبوة والأنبياء – بعد أنبيائهم – تعصبا وحقدا.

ومن هنا تبدأ جولة مع اليهود تكشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم:موسى – عليه السلام – مما يكشف عن طبيعة السوء فيهم،وموقفهم تجاه الحق ودعوته أيا كان الداعي إلى هذا الحق ولو كان هو نبيهم الأكبر موسى،وكذلك موقفهم من عيسى عليه السلام وأمه وإطلاق قالة السوء فيها – مما يكره اللّه ولا يحبه – فيبدو عندئذ موقفهم من الرسول – ﷺ – ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوما ومكشوفا!

وبمناسبة دعاوى اليهود على المسيح عليه السلام،وتبجحهم بقتله! يقرر القرآن حقيقة الأمر،وطبيعة هذا الزعم.ويذكر كيف عاقب اللّه اليهود على ظلمهم وصدهم عن سبيل اللّه،وأخذهم الربا وقد نهوا عنه،وأكلهم أموال الناس بالباطل..بحرمانهم من بعض الطيبات التي أحلت لهم في الدنيا،وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة.مستثنيا الراسخين في العلم والمؤمنين الذين عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه،ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبي – ﷺ – بتقرير أنها أمر طبيعي مألوف لا يثير عجبا ولا غرابة ولا استنكارا.إذ هو جاء على سنة اللّه في إرسال الرسل للبشر من لدن نوح عليه السلام ثم إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود..وغيرهم ممن يقر اليهود برسالة بعضهم وينكرون رسالة بعضهم تعنتا وحقدا.وهو الأمر الطبيعي أن يرسل اللّه لعباده رسلا مبشرين ومنذرين..«لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»..فهو أمر ضروري،فوق أنه طبيعي..

وفي مقابل إنكار اليهود يقرر شهادة اللّه – سبحانه – وشهادة الملائكة.وكفى باللّه شهيدا.ويتوعد الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه..الذين كفروا وظلموا..يتوعدهم ألا يغفر اللّه لهم وألا يهديهم سبيلا إلا سبيل جهنم خالدين فيها أبدا..ويعقب على هذا بنداء للناس كافة،وإعلامهم أن هذا الرسول قد جاءهم بالحق من ربهم،ودعوتهم إلى الإيمان،وإلا فإن للّه ما في السماوات والأرض.وقد شهد بصحة هذه الرسالة ودعاهم إلى الإيمان بها،فهم إذن وما يختارون لأنفسهم بإزاء دعوة ممن له ما في السماوات والأرض.

وهكذا تنتهي هذه الجولة مع اليهود من أهل الكتاب.وقد كشفت عن طبيعتهم ووسائلهم وعادة السوء فيهم من قديم،وردت كيدهم بهذا الكشف،وقررت كلمة الحق في رسالة محمد – ﷺ –وأقامت الحجة على الناس بشهادة اللّه سبحانه..فوق ما قررته من جسامة تبعة الرسل،وأصحاب دعوة الحق،فهي إقامة الحجة على الناس من جانب،ومن الجانب الآخر أن أمر الناس كلهم معلق بأعناق الرسل والمؤمنين برسالتهم،لينجو الناس من عقاب اللّه أو يستحقوه عن بينة..وهي تبعة خطيرة جسيمة.

فإذا انتهت هذه الجولة مع اليهود وأنصف اللّه عيسى بن مريم وأمه منهم وكذب دعاوى السوء اليهودية عن عيسى وعن مريم..بدأت الجولة الثانية مع النصارى – أتباع عيسى عليه السلام – لتصحيح غلوهم في أمر المسيح – عبد اللّه ونبيه – وكفهم عن هذا الغلو،وتقرير الحق في شأنه:فهو عبد اللّه لا يستنكف أن يكون عبدا للّه.وكذلك الملائكة – تصحيحا لمزاعمهم عن روح القدس – ونفي التثليث ونفي الأبوة عن اللّه سبحانه وتعالى ،وفي ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامي الصحيح،ويتمحض الأمر كله في أن يكون:ألوهية وعبودية..ألوهية اللّه وحده وعبودية كل من عداه..وهي القاعدة الكبرى في العقيدة الإسلامية،والسمة البارزة،والمقوم الأساسي..

ومن ثم يجيء التبشير للمؤمنين،والإنذار للكافرين المستنكفين عن العبودية للّه ويجيء إعلان عام للناس كالذي ختمت به الجولة الأولى مع اليهود،بأنه قد جاء للناس برهان من ربهم ونور مبين،فلا حجة ولا شبهة ولا معذرة للمتخلفين.
وتختم السورة بآية تحتوي بقية في أحكام المواريث في حالة الكلالة.وقد سبق في السورة حكم بعض الحالات.وهذه بقيتها..وهي بقية من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الجديد الذي جاء الإسلام ليقيم على أساسه حياة الجماعة المسلمة ويحولها – كما قلنا في أول السورة – إلى أمة،لها طابع الأمة المتميزة ونظامها وخصائصها المستقلة.لتؤدي دورها الضخم في الحياة البشرية وفي المجتمع الإنساني.دور القيادة والوصاية والتقويم.
وهكذا يبدو – من استعراض السورة كلها،ثم استعراض هذا القطاع منها – أن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي،يسير مع التهذيب الخلقي،مع تصحيح العقيدة والتصور،مع خوض المعركة مع الأعداء المتربصين بالجماعة المسلمة،مع بيان ضخامة التبعة والدور الذي على هذه الجماعة أن تقوم به..وأن القرآن – كتاب هذه الدعوة ودستور هذه الأمة – ينهض بهذا كله..في صورة شاملة كاملة متوازنة دقيقة.صورة تجعل من الحتم على كل من يريد إعادة بناء هذه الأمة وإحياءها وبعثها،لتنهض من جديد بتبعاتها ودورها،أن يتخذ من هذا القرآن منهجا لدعوته،ومنهجا لحركته،ومنهجا لكل خطوة في طريق الإحياء والبعث وإعادة البناء..والقرآن حاضر لأداء دوره الذي أداه أول مرة.وهو خطاب اللّه الباقي للنفس البشرية في كل أطوارها.لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد..كما يقول عنه أعرف الناس به – ﷺ – الذي جاهد به الكفار والمنافقين وأهل الكتاب المنحرفين وأقام به هذه الأمة المتفردة في تاريخ الناس أجمعين.[٢٦].



[٢٦] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٧٩١]

قال تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]..

هو نشيد النصر الأكبر،والفتح المبين للمسلمين،بعد هذا الجهاد المضنى،والبلاء العظيم،الذي احتملوه فى مسيرتهم على طريق الدعوة الإسلامية،منذ فجرها،إلى استواء شمسها.. فقد كمل الدين،وتمت النعمة،ولبس المسلمون ثوب الإسلام الذي رضيه الله لهم دينا..

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجريّ فى كتابه «الشريعة» :"إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِيُقِرُّوا بِتَوْحِيدِهِ،فَيَقُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَكَانَ مَنْ قَالَ هَذَا مُوقِنًا مِنْ قَلْبِهِ وَنَاطِقًا بِلِسَانِهِ أَجْزَأَهُ،وَمَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَإِلَى الْجَنَّةِ،فَلَمَّا آمَنُوا بِذَلِكَ،وَأَخْلَصُوا تَوْحِيدَهُمْ،فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ بِمَكَّةَ،فَصَدَّقُوا بِذَلِكَ،وَآمَنُوا وَصَلَّوْا،ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْهِجْرَةَ،فَهَاجَرُوا،وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْوَطَنَ،ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ بِالْمَدِينَةِ الصِّيَامَ،فَآمَنُوا وَصَدَّقُوا وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ،ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الزَّكَاةَ،فَآمَنُوا وَصَدَّقُوا،وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا أُمِرُوا،ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ،فَجَاهَدُوا الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ،وَصَبَرُوا وَصَدَّقُوا،ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْحَجَّ،فَحَجُّوا وَآمَنُوا بِهِ،فَلَمَّا آمَنُوا بِهَذِهِ الْفَرَائِضِ،وَعَمِلُوا بِهَا تَصْدِيقًا بِقُلُوبِهِمْ،وَقَوْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ،وَعَمَلًا بِجَوَارِحِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣] ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا دِينَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ تَعَالَى:{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ،وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٥] وَقَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران:١٩]،وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ:شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ،وَحَجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ".

ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ،حَالًا بَعْدَ حَالٍ،وَسَنَذْكُرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى،وَهَذَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ طَرِيقُ الْمُسْلِمِينَ فَإِنِ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي رُوِيَتْ:"مَنْ

قَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ"قِيلَ لَهُ:هَذِهِ كَانَتْ قَبْلَ نُزُولِ الْفَرَائِضِ،عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ،وَهَذَا قَوْلُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،مِمَّنْ نَفَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِلْمِ،وَكَانُوا أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ،سِوَى الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ جُمْلَةِ مَا عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ،وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ،وَقَوْلِ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ لَا يُسْتَوْحَشُ مِنْ ذِكْرِهِمْ فِي كُلِّ بَلَدٍ "[27]

وفى إضافة الدين إلى المسلمين «دينكم» وهو فى الحقيقة دين الله– إذ يقول سبحانه:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» – فى هذا ما يشعر بأن الأمة التي اختارها الله تعالى لحمل هذا الدين،وتبليغ رسالته،هى أهل لحمل هذه الأمانة العظيمة،كما أنها مستحقة لتكون فى هذا المقام الكريم التي تقوم فيه مقام الأنبياء والمرسلين فى القيام على دين الله..[28]

اليوم..الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع..أكمل اللّه هذا الدين.فما عادت فيه زيادة لمستزيد.وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل.ورضي لهم «الإسلام» دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته – إذن – فإنما يرفض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة،وتوجيهات عميقة،ومقتضيات وتكاليف..

إن المؤمن يقف أولا:أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان،وموكب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين..فماذا يرى؟..

يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمان..رسالة خاصة،لمجموعة خاصة،في بيئة خاصة..ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تدعو إلى عبودية واحدة

---

[27] – الشريعة للآجري (١/ ٥٥٠)

[28] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١٠٣٣)

لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عن هـــذا الإلـــه الواحـــد والطاعة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعيـــة تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف..

حتى إذا أراد اللّه أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خـــاتم النبـــيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خـــاص،في ظـــروف خاصة..رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهـــا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساســـية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصـــيلية والقـــوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان..وكذلك كانت هـــذه الشـــريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلـــك الرسالة إلى آخر الزمـــان مـــن ضـــوابط وتوجيهـــات وتشـــريعات وتنظيمـــات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار..وقال اللّه – سبحانه – للذين آمنوا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْـــلامَ دِيناً»..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا..فهذا هو الدين..ولم يعـــد للمـــؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمـــال.ولا قصـــورا يســـتدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق اللّه وما هو بمرتض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها – بشهادة اللّه – شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكان مـــن الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج مـــن اطـــار الإيمان! واللّه الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم مـــن اللّـــه بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمـــام إتمـــام نعمـــة اللّـــه علـــى المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتمالـــه.«فالإنســـان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته علـــى ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة اللّه وحده وقبل أن ينـــال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع اللّه وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الـــدين هـــي بـــدء مولـــد «الإنسان»..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكـــون «حيوانـــا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنســـان» في أكمـــل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن..

والمسافة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان!

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقـــق «للإنســـان» «إنســـانيته» كاملة..يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في اللّه وملائكته وكتبه ورسله واليـــوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوســـات،إلى دائـــرة «التصـــور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.

عالم الشهادة وعالم الغيب..عالم المادة وعالم ما وراء المادة..وينقذه مـــن ضـــيق الحـــس الحيواني المحدود! ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد اللّه،من العبودية للعباد إلى العبودية للّـــه

وحده،والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عـــداه.فـــإلى اللّـــه وحـــده يتجـــه بالعبادة،ومن اللّه وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام،وعلى اللّه وحده يتوكـــل ومنـــه وحده يخاف..ويحققها له،بالمنهج الرباني،حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه،ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعـــام! ولا يدرك حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهليـــة ومن لم يذق ويلاتها – والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الـــذي لم يشرعه اللّه – فهـــذا الـــذي عـــرف الجاهليـــة وذاق ويلاتهـــا..ويلاتهـــا في التصـــور والاعتقاد،وويلاتها في واقع الحياة..هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتـــذوق حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحيرة والتمـــزق،وويلات الضـــياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان..هو الذي يعـــرف ويتذوق نعمة الإيمان.

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخـــبط والاضـــطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويـــدركون ويتـــذوقون هـــذه الكلمات.لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن.

كانوا قد ذاقوا الجاهلية..ذاقوا تصوراتها الاعتقادية.وذاقوا أوضاعها الاجتماعيـــة.وذاقـــوا أخلاقها الفردية والجماعية.وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة اللّه عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل اللّه عليهم ومنته بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسارهم في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضـــيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصـــورات الاعتقاديـــة حـــول ربوبيـــة الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قاهر،رحيم ودود،سميـــع بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل له عبيد..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن سلطان الرياسة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية.من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمـــراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال.وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه،لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيـــا حـــين ســـام بـــني أســـد أن يســـتعبدهم بالعصا،وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:أنت المملك فيهم وهم العبيـــد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة «وكان عمر بن هند ملكا عربيـــا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائـــل أن تـــأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يومـــا للرضـــى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل:إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليـــب حيـــث يعجبـــه الصيد،فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه.وقيل:«لا حر بوادي عوف»

لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره.فكلـــهم أحـــرار في حكـــم العبيد..» [٢٩]

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصـــلات الاجتماعية..كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة،والمرأة المنكودة،والخمر والقمـــار والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المـــرأة ومهانتـــها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجـــوم خـــارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبـــة،وتخاذل وخـــذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا!

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحد.عرف السفح وعرف القمة.عرف الجاهليـــة وعرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول اللّه لهم:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»..

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء اللّه الإسلام دينا للذين آمنوا..يقف أمام رعايـــة اللّـــه – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه..وهو تعبير يشي بحب اللّـــه لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكـــافىء هـــذه الرعايـــة الجليلة..أستغفر اللّه..فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء اللّه الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيـــار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه اللّه له،ليختار لنفسه غـــير مـــا اختـــاره اللّه!..وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا

[٢٩] – من كتاب : «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ص ١٥١

وقد رفض ما ارتضاه له اللّه..ولقد يترك اللّه الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضـــوه..واتخـــذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم اللّه..فلن يتركهم اللّه أبـــدا ولـــن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![٣٠]



[٣٠] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٨٤٢]

لقد كان اللّه الذي أخرج هذه الأمة،وجعلها خير أمة أخرجت للناس،يعدها لأمر عظيم هائل..كان يعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض،لتستقيم عليه كما لم تستقم أمة قط،ولتقيمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط.و لم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة.رياضة تخلعها أولا من جاهليتها وترفعها من سفح الجاهلية الهابطة وتمضي بها صعدا في المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشامخة ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية وتربية إرادتها على حمل الحق وتبعاته.ثم تنتهي بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلا وفق قيم الإسلام في ميزان اللّه..حتى تكون ربانية حقا..وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم..وعندئذ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب ولو أعجبها كثرة الخبيث! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس.ولكن تمييز الخبيث من الطيب،وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان اللّه،يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته،وكفة الطيب ترجح على قلته..وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤتمنة على القوامة..القوامة على البشرية..تزن لها بميزان اللّه وتقدر لها بقدر اللّه وتختار لها الطيب،ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث! وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان..ذلك حين ينتفش الباطل فتراه النفوس رابيا وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته..ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان اللّه إلى هذا الباطل المنتفش،فلا تضطرب يده،ولا يزوغ بصره،ولا يختل ميزانه ويختار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد ولا عدة حوله ولا عدد..إنما هو الحق..الحق المجرد إلا من صفته وذاته وإلا من ثقله في ميزان اللّه وثباته وإلا من جماله الذاتي وسلطانه! لقد ربى اللّه هذه الأمة بمنهج القرآن،وقوامة رسول اللّه – ﷺ – حتى علم – سبحانه – أنها وصلت إلى المستوي الذي تؤتمن فيه على دين اللّه..لا في نفوسها وضمائرها فحسب،ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض،بكل ما يضطرب في الحياة من رغبات ومطامع،وأهواء ومشارب،وتصادم بين المصالح،وغلاب بين الأفراد والجماعات.ثم بعد ذلك في قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام في خضم الحياة العام.

لقد رباها بشتى التوجيهات،وشتى المؤثرات،وشتى الابتلاءات،وشتى التشريعات وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دورا في النهاية واحدا،هو إعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها،وبمشاعرها واستجاباتها،وبسلوكها وأخلاقها،وبشريعتها ونظامها،لأن تقوم على دين اللّه في الأرض،ولأن تتولى القوامة على البشر..

وحقق اللّه ما يريده بهذه الأمة..واللّه غالب على أمره..وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين اللّه..حلما يتمثل في واقع..وتملك البشرية أن تترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها اللّه..[31]



[31] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /٩٨٤]

قال تعالى:{ وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)} [الأنعام:١٠، ١١]..

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَمَّا يُلاقِيه مِنْ عِنَادِ الكُفَّارِ وَتَكْذِيبِهِمْ،وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى البَاطِلِ،فَيَقُولُ لَهُ:لَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ جَاؤُوا قَبْلَكَ،وَسَخِرَ مِنْهُمُ الكَافِرُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ،وَمِنَ العِقَابِ الذي أَنْذَرُوهُمْ به،فَعَاقَبَ اللهُ الذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ فَدَمَّرَهُم،وَنَصَرَ رُسُلَهُ وَالمُؤْمِنِينَ،وَكَانَت العَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لأُولَئِكَ المُكَذِّبِينَ المُسْتَهْزِئِينَ الجَاحِدِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ:سِيرُوا فِي الأَرْضِ،وَتَتَبَّعُوا أَخْبَارَ الأُمَمِ التي عَاشَتْ فِيهَا،ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ المُكَذِبِينَ،وَعَاقِبَةُ بَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ،فَاعْتَبَرُوا بِذَلِكَ المَصِيرِ.[32]

وقوله تعالى:«وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» هو مواساة للنبىّ الكريم،وعزاء له،مما يلقى من المشركين من عناد،وما يساق إليه منهم من ضر وأذى.. فتلك هى سبيل حملة الهدى من عباد الله.. فكم لقى رسل الله من أقوامهم من عنت وبلاء،حتى لقد قتل بعضهم،ومثّل به أشنع تمثيل.. ولكن العاقبة للحق والخير،والنصر لدعوة الحق والخير.. والويل والخذلان والخزي لأولئك الذين كذّبوا برسل الله وسخروا منهم واستهزءوا بهم.. «فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» أي أحاط بهم واشتمل عليهم استهزاؤهم وسخريتهم،فهذا الاستهزاء هو الذي أوردهم موارد الهالكين فى الدنيا،وأنزلهم منازل أصحاب النار فى الآخرة.

فإن شك هؤلاء المكذبون،المستهزءون بآيات الله وبرسول الله.. إن شك هؤلاء فى المصير الذي هم صائرون إليه،فلينظروا فيما كان لأمثالهم،الذين كذبوا بآيات الله وبرسل الله،«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» لقد أخذهم الله بكفرهم

[32] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

وعنادهم،وأرسل عليهم الصواعق،وصبّ عليهم البلاء،وإذا هم فى لحظة خاطفة جثث هامدة،وأشلاء ممزقة.. وإذا هم صائرون إلى مصير يلقون فيه العذاب الأليم.. «وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».[٣٣]

إن هذه اللفتة – بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من اللّه وحلم – لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول:تسلية رسول اللّه – ﷺ – والتسرية عنه،مما يلقاه من عناد المعرضين،وعنت المكذبين وتطمين قلبه – ﷺ – إلى سنة اللّه سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق.فقد لقي مثله الرسل قبله وقد لقي المستهزءون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب،ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف..

والثاني:لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين:وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب.وقد أخذ اللّه – من قبلهم – قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض وأكثر منهم ثراء ورخاء،كما قال لهم في مطلع هذه الموجة التي ترج القلوب رجا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة.

ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني:«قُلْ:سِيرُوا فِي الْأَرْضِ،ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»..

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ولمعرفة سنن اللّه مرتسمة في الأحداث،والوقائع مسجلة في الآثار الشاخصة،وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها..

السير على هذا النحو،لمثل هذا الهدف،وبمثل هذا الوعي..أمور كلها كانت جديدة على العرب تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى

[٣٣] – التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٣٦)

هذا المستوي من الوعي والفكر والنظر والمعرفة.لقد كانوا يسيرون في الأرض،ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش،وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي..

أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي..فهذا كان جديدا عليهم.وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية،في الطريق الصاعد،إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية.

ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها – بإذن اللّه – ويستطيع الناس ملاحظتها وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ومعرفة مراحلها وأطوارها..كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئا جديدا على العقل البشري كله في ذلك الزمان.إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار،مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث،كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج،وبين المراحل والأطوار..فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ويشرع لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني..وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة.إنما هو «المنهج»..هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني.

والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية،وهي فترة لا تكفي إطلاقا لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية،سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب،لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد،الذي جاءهم به محمد – ﷺ – من عند اللّه العليم الخبير..ففي هذا المنهج تكمن المعجزة،وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثا..إله الاقتصاد..

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية الذي ينشئ من التصـــورات الاعتقادية ونظام الحكم،ومناهج الفكر،وقيم الأخلاق،وآماد المعرفة،وأوضاع المجتمع،كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان؟![٣٤]



[٣٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٢ /١٠٤٥]

قال تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام: ٥٢]..

وَلا تُبعدُ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمُؤْمنينَ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ،وَيُصَلُّونَ إِلَيْه صَبَاحَ مَسَاءَ،وَيَدْعُونَهُ لاَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ غَيْرَ رِضَا رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَتِه،فَلَيْسَ عَلَيكَ أَنْتَ مِنَ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيءٍ،إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى الله،فَإِذَا أَبْعَدْتَهُمْ وَطَرَدْتَهُم مِنْ مَجْلِسِكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمينَ[35].

لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم للّه فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء يريدون وجهه سبحانه! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه..وهي صورة للتجرد،والحب،والأدب..فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى اللّه وحده بالعبادة والدعاء.وهو لا يبغي وجه اللّه،إلا إذا تجرد.وهو لا يبغي وجه اللّه وحده حتى يكون قلبه قد أحب.وهو لا يفرد اللّه – سبحانه – بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب،وصار ربانيا يعيش للّه وباللّه..

ولقد كان أصل القصة أن جماعة من «أشراف» العرب،أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام لأن محمدا – ﷺ – يؤوي إليه الفقراء الضعاف،من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود..ومن إليهم..وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول اللّه – ﷺ – أن يطردهم عنه..فأبى..فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر،لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف،كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي! فهمّ – ﷺ – رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه.فجاءه أمر ربه :«وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»..

[35] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٤٢، بترقيم الشاملة آليا)

روى مسلم عَنْ سَعْدٍ،قَالَ:"كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ،فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ،وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ،وَبِلَالٌ،وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا،فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"[٣٦]..

ولقد تقوّل أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف،الذين يخصهم رسول اللّه – ﷺ – بمجلسه وبعنايته وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول اللّه – ﷺ – من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام..فقضى اللّه سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا:« ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ،فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ»..فإن حسابهم على أنفسهم،وحسابك على نفسك.وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند اللّه،لا شأن لك به.كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند اللّه لا شأن لهم به.ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه.فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان اللّه،ولا تقوّم بقيمة..

فكنت من الظالمين..وحاشا لرسول اللّه – ﷺ – أن يكون من الظالمين! وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول اللّه – ﷺ – وبقي ضعاف الجاه الأقوياء باللّه في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم والذي يستحقونه بدعائهم للّه لا يبتغون إلا وجهه.واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره اللّه..عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون:كيف يمكن أن يختص اللّه من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟

إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه ولهدانا اللّه به قبل أن يهديهم! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ اللّه عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه! وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها اللّه لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على

---

[٣٦] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨) ٤٦ - (٢٤١٣)

البشرية،مشرقة الآفاق،مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة التي كانت يومذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها وما تزال غريبة في ما يسمونه الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها! «وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا:أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا؟»..

ويرد السياق القرآني على هذا الاستفهام الاستنكاري الذي يطلقه الكبراء:«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»؟ هذا الرد الحافل بالإيحاءات والإيماءات :

إذ يقرر ابتداء أن الهدى جزاء يجزي به اللّه من يعلم من أمرهم أنهم إذا هدوا سيشكرون هذه النعمة،التي لا كفاء لها من شكر العبد،ولكن اللّه يقبل منه جهده ويجزيه عليه هذا الجزاء الهائل الذي لا يعد له جزاء.

وإذ يقرر أن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التي تسود في الجاهليات البشرية.إنما يختص اللّه بها من يعلم أنهم شاكرون عليها.لا يهم أن يكونوا من الموالي والضعاف والفقراء.فميزان اللّه لا مكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التي تتعاظم الناس في الجاهليات! وإذ يقرر أن اعتراض المعترضين على فضل اللّه إنما ينشأ من الجهالة بحقائق الأشياء.وأن توزيع هذا الفضل على العباد قائم على علم اللّه الكامل بمن يستحقه من هؤلاء العباد.وما اعتراض المعترضين إلا جهل وسوء أدب في حق اللّه.

ويمضي السياق يأمر رسول اللّه – ﷺ – وهو رسول اللّه أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف!..أن يبدأهم بالسلام..وأن يبشرهم بما كتبه اللّه على نفسه من الرحمة متمثلا في مغفرته لمن عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح :«وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ:سَلامٌ عَلَيْكُمْ،كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ،ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ،فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

وهو التكريم – بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب،والرحمة في الجزاء،حتى ليجعل اللّه – سبحانه – الرحمة كتابا على نفسه للذين آمنوا بآياته ويأمر رسوله – ﷺ – أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه.وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله،متى تابوا من

بعده وأصلحوا – إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الــذنب فمــا يــذنب الإنسان إلا من جهالة وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله صاحبه متى تــاب من بعده وأصلح.ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الــذنب – أيــا كان – والإصلاح بعده،مستوجبة للمغفرة بما كتب اللّه على نفسه من الرحمة...

ونعود – قبل الانتهاء من استعراض هذه الفقرة من السورة – إلى بعض الآثار التي وردت عن ملابسات نزول هذه الآيات وعن دلالة هذه الآثار مع النصوص القرآنية على حقيقــة النقلة الهائلة التي كان هذا الدين ينقل إليها البشرية يومذاك والتي ما تزال البشــرية حــتى اليوم دون القمة التي بلغتها يومها ثم تراجعت عنها جدا..

روى أبو جعفر الطبري عَنِ ابْنِ مَسْعُود،قَالَ:"مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ صُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَنَحْوُهُمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ،فَقَالُوا:يَا مُحَمَّدُ،أَرَضِيتَ بِهَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ،هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا،أَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ؟ اطْرُدْهُمْ [ص:٢٥٩] عَنْكَ،فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ نَتَّبِعَكَ،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:{وَلَا تَطْرُدِ الَّــذِينَ يَــدْعُونَ رَبَّهُــمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعــام:٥٢] {وَكَــذَلِكَ فَتَنَّــا بَعْضَــهُمْ بِــبَعْضٍ} [الأنعام:٥٣][37]

وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ،:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ} [الأنعام:٥٢] وَالْعَشِــيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ،قَالَ:جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ،وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْــنٍ،فَوَجَدُوا النَّبِــيَّ ﷺ قَاعِدًا مَعَ بِلَالٍ،وَعَمَّارٍ،وَصُهَيْبٍ،وَخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي أُنَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَهُ حَقَّرُوهُمْ،فَأَتَوْهُ [ص:٣١٩] فَخَلَوْا بِهِ،فَقَالُوا:إِنَّا نُحِــبُّ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا،فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ،فَنَسْــتَحِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ قُعُودًا مَعَ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ،أَوْ إِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنَّــا،وَإِذَا نَحْــنُ فَرَغْنَــا فَأَقْعِدْهُمْ إِنْ شِئْتَ،فَقَالَ:«نَعَمْ»،فَقَالُوا:فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا،فَدَعَا بِالصَّــحِيفَةِ لِيَكْتُــبَ لَهُمْ،وَدَعَا عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَكْتُبَ،فَلَمَّا أَرَادَ ذَلِكَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ،إِذْ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:٥٢]

---

[37] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٢٥٨) حسن

إِلَى قَوْلِه: {فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٥٢]،ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ وَصَاحِبَهُ،فَقَالَ: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:٥٣]،ثُمَّ ذَكَرَهُ،فَقَالَ: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام:٥٤] فَرَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّحِيفَةِ،وَدَعَانَا فَأَتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ:«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»،فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ [ص:٣٢٠]. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف:٢٨]،يَقُولُ:لَا تَعْدُ عَيْنَيْكَ عَنْهُمْ،يَقُولُ:وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ، {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف:٢٨]،أَمَّا الَّذِي أَغْفَلَ قَلْبَهُ فَهُوَ - عُيَيْنَةُ وَالْأَقْرَعُ - وَأَمَّا - فُرُطًا - فَهَلَاكًا،ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ،وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،قَالَ:فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي كَانَ يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ،حَتَّى يَقُومَ وَإِلَّا صَبَرَ أَبَدًا حَتَّى نَقُومَ.[38]

وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ،بِنَحْوِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثِهِ:فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَهُ نَفَّرُوهُمْ،فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ. وَقَالَ أَيْضًا: {فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٥٢]،ثُمَّ [ص:٢٦١] ذَكَرَ الْأَقْرَعَ وَصَاحِبَهُ،فَقَالَ: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الأنعام:٥٣] الْآيَةَ. وَقَالَ أَيْضًا:فَدَعَانَا فَأَتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ:«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»،فَدَنَوْنَا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ،وَسَائِرُ الْحَدِيثِ نَحْوَهُ.[39]

وعَنْ قَتَادَةَ،وَالْكَلْبِيِّ،أَنَّ نَاسًا،مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:"إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَاطْرُدْ عَنَّا فُلَانًا وَفُلَانًا،نَاسًا مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:٥٢] ".[40]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام:٥٢] إِلَى قَوْلِهِ: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الأنعام:٥٣] الْآيَةَ،قَالَ:وَقَدْ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ النَّاسِ

---

[38] - مسند ابن أبي شيبة (١/ ٣٢٠)(٤٧٧) حسن

[39] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٢٦٠) حسن

[40] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٢٦١) صحيح مرسل

لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:يَا مُحَمَّدُ،إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَاطْرُدْ عَنَّا فُلَانًا وَفُلَانًا،لِأُنَاسٍ كَانُوا دُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ازْدَرَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا ".[41]

وعَنْ مُجَاهِدٍ:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام:52]:بِلَالًا وَابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَانَا يُجَالِسَانِ مُحَمَّدًا ﷺ،فَقَالَتْ قُرَيْشٌ مُحَقِّرَتَهُمَا:لَوْلَاهُمَا وَأَمْثَالُهُمَا لَجَالَسْنَاهُ،فَنُهِيَ عَنْ طَرْدِهِمْ،حَتَّى قَوْلِهِ:{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:53]،قَالَ:قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ،فِيمَا بَيَّنَ ذَلِكَ فِي هَذَا ".[42]

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ سَعِيدٌ:"نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ:"كُنَّا نَسْبِقُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،وَنَدْنُو مِنْهُ وَنَسْمَعُ مِنْهُ،فَقَالَتْ قُرَيْشٌ:يُدْنِي هَؤُلَاءِ دُونَنَا؟ فَنَزَلَتْ:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام:52] ".[43]

وعَنْ عِكْرِمَةَ،فِي قَوْلِهِ:{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام:51] الْآيَةَ،قَالَ:جَاءَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَالْحَرْثُ بْنُ نَوْفَلٍ وَقَرَظَةُ بْنُ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ نَوْفَلٍ فِي أَشْرَافٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَى أَبِي طَالِبٍ،فَقَالُوا:يَا أَبَا طَالِبٍ،لَوْ أَنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَطْرُدُ عَنْهُ مَوَالِينَا وَحُلَفَاءَنَا،فَإِنَّمَا هُمْ عَبِيدُنَا وَعُسَفَاؤُنَا،كَانَ أَعْظَمَ فِي صُدُورِنَا وَأَطْوَعَ لَهُ عِنْدَنَا وَأَدْنَى لِاتِّبَاعِنَا إِيَّاهُ وَتَصْدِيقِنَا لَهُ،قَالَ:فَأَتَى أَبُو طَالِبٍ النَّبِيَّ ﷺ،فَحَدَّثَهُ بِالَّذِي كَلَّمُوهُ بِهِ،فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي يُرِيدُونَ وَإِلَامَ يَصِيرُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ:{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ،وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:52] إِلَى قَوْلِهِ:{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:53] قَالَ:وَكَانُوا:بِلَالًا،وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ،وَسَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ،وَصُبَيْحًا مَوْلَى أُسَيْدٍ،وَمِنَ الْحُلَفَاءِ:ابْنُ مَسْعُودٍ،وَالْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو،وَمَسْعُودُ بْنُ الْقَارِيِّ،وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْظَلِيُّ،وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ عَمْرٍو ذُو الشِّمَالَيْنِ،وَمَرْثَدُ بْنُ أَبِي

---

[41] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (9/ 261) صحيح مرسل

[42] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (9/ 261) صحيح مرسل

[43] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (9/ 262) صحيح

مَرْثَد،وَأَبُو مَرْثَد مِنْ غَنِيٍّ حَلِيف حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْحُلَفَاءِ. وَنَزَلَتْ فِي أَئِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَوَالِي وَالْحُلَفَاءِ:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} [الأنعام:٥٣] الْآيَةَ،فَلَمَّا نَزَلَتْ أَقْبَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَاعْتَذَرَ مِنْ مَقَالَتِهِ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام:٥٤] الْآيَةَ.[٤٤]

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:إِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَانِي مَعَ سَلْمَانَ وَبِلَالٍ وَذَوِيهِمْ،فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ وَجَالِسْ فُلَانًا وَفُلَانًا،قَالَ:فَنَزَلَ الْقُرْآنُ:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:٥٢]،فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ:{فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٥٢]:مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَّا أَنْ تَطْرُدَهُمْ. ثُمَّ قَالَ:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:٥٣]،ثُمَّ قَالَ:وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرُوكَ أَنْ تَطْرُدَهُمْ فَأَبْلِغْهُمْ مِنِّي السَّلَامَ وَبَشِّرْهُمْ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ،وَقَرَأَ:{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام:٥٤]،فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ:{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:٥٥]،قَالَ:لِتَعْرِفَهَا".[٤٥]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ،قَالَ:أَبْطَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ،فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:"مَا بَطَّأَ بِكِ ؟"قَالَتْ:سَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ،مَا سَمِعْتُ رَجُلًا أَحْسَنَ قِرَاءَةً مِنْهُ،فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ صَوْتَهُ،فَإِذَا هُوَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ،فَقَالَ:"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَكَ "[٤٦]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:كُنْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ،قَالَ:وَإِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرْيِ،قَالَ:وَقَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا،فَنَحْنُ نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ،فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا،فَلَمَّا قَامَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:مَا كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالَ:فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَانَ قَارِئٌ

---

[٤٤] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٢٦٢) صحيح مرسل

[٤٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٢٦٣) حسن مرسل

[٤٦] – أخبار مكة للفاكهي – (٣ / ٢٥) (١٧٢٩) إسناده صحيح

يَقْرَأُ وَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ مَعَهُمْ،قَالَ:ثُمَّ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ نَفْسَهُ فِينَا،قَالَ:ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ اسْتَدِيرُوا،فَاسْتَدَارَتِ الْحَلْقَةُ وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ،قَالَ:فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أَحَدًا غَيْرِي،فَقَالَ:أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ الدَّائِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِنِصْفِ يَوْمٍ،وَذَاكَ خَمْسُمِئَةِ سَنَةٍ "[47]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،قَالَ:"نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،وَهُوَ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ:{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الكهف:٢٨]،خَرَجَ يَلْتَمِسَهُمْ،فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ،وَجَافُّ الْجِلْدِ،وَذُو الثَّوْبِ الْوَاحِدِ،فَلَمَّا رَآهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ،فَقَالَ:"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ "[48]

وعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ،أَتَى عَلَى سَلْمَانَ،وَصُهَيْبٍ،وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ،فَقَالُوا:وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا،قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ:«يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ،لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ،لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ:يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا:لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي".[49]

نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص..والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك..

إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادئ وقيم ونظريات في «حقوق الإنسان!»..إنها أكبر من ذلك بكثير

---

[47] - مسند أبي يعلى الموصلي (١١٥١) حسن لغيره

[48] - معرفة الصحابة لأبي نعيم - (٤ / ١٨٢٩) (٤٦١٧) صحيح - ثائر الرأس : قائم شعره منتفش منتشر

[49] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٤٧) ١٧٠ - (٢٥٠٤)

[ش (أتى على سلمان) هذا الإتيان لأبي سفيان كان وهو كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية (لا يغفر الله لك) قال القاضي قد روى عن أبي بكر أنه قد نهى عن مثل هذه الصيغة وقال قل عافاك الله رحمك الله لا تزد أي لا تقل قبل الدعاء لا فتصير صورته نفي الدعاء قال بعضهم قل لا ويغفر الله لك (أخي) ضبطوه بضم الهمزة على التصغير وهو تصغير تحبيب وترقيق وملاطفة وفي بعض النسخ بفتحها]

إنها تمثل شيئا هائلا تحقق في حياة البشرية فعلا..تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشـــرية بجملتها..تمثل خطا وضيئا على الأفــق بلغتــه هـــذه البشـــرية ذات يـــوم في حياتها الحقيقية..ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي صـــعدت إليـــه في خطو ثابت على حداء هذا الدين،فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوما ومن أهمية هذا الخط الذي ارتســـم بالفعـــل في حيـــاة البشـــر الواقعية..إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم.أن تحاول البشرية مرة ومرة ومـــرة الارتفاع إليه ما دام أنها قد بلغته فهو في طوقها إذن وفي وسعها..والخـــط هنـــاك علـــى الأفق،والبشرية هي البشرية وهذا الدين هو هذا الدين..فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين..
وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله..من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلام منه العـــرب،إلى القمـــة الســـامقة الـــتي بلـــغ بهـــم إليها،وأطلعتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة الـــتي بلغوها!

فأما ذلك السفح الهابط الذي كان فيه العرب في جاهليتهم – وكانت فيه البشرية كلـــها – فهو يتمثل واضحا في قولة:«الملأ» من قريش:«يا محمد،رضيت بهؤلاء مـــن قومـــك؟ أهؤلاء الذين منّ اللّه عليهم من بيننا؟
أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعـــك!»..أو في احتقـــار الأقرع بن حابس التميمي،وعيينة بن حصن الفزاري،للسابقين من أصحاب رسول اللّه – ﷺ – بلال،وصهيب،وعمار،وخباب،وأمثالهم من الضعفاء وقولهما للنبي – ﷺ –:إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود العرب تأتيك،فنســـتحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد!»....
هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح! وقيمها الهزيلة،واعتباراتها الصغيرة..عصـــبية النســـب والجنس واعتبارات المال والطبقة..وما إلى ذلك من اعتبارات.هؤلاء بعضهم ليســـوا مـــن العرب! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء!..ذات القيم التي تروج في كل جاهلية! والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القوميـــة

والجنسية والطبقية! هذا هو سفح الجاهلية..وعلى القمة السامقة الإسلام! الذي لا يقيم وزنا لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة،ولهذه النعرات السخيفة!..الإسلام الذي نزل من السماء و لم ينبت من الأرض.فالأرض كانت هي هذا السفح..هذا السفح الذي لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة..الإسلام الذي يأتمر به – أول من يأتمر – محمد – ﷺ – محمد رسول اللّه الذي يأتيه الوحي من السماء والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قريش..والذي يأتمر به أبو بكر صاحب رسول اللّه ﷺ في شأن «هؤلاء الأعبد»..نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد وصاروا أعبدا للّه وحده فكان من أمرهم ما كان!

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم في كلمات الملأ من قريش،وفي مشاعر الأقرع وعيينة..فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم في أمر اللّه العلي الكبير،لرسوله – ﷺ –:« وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ.وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا:أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ؟ وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ:سَلامٌ عَلَيْكُمْ،كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ:أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ،ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ،فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

ويتمثل في سلوك رسول اللّه – ﷺ – مع «هؤلاء الأعبد»..الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم – وهو بعد ذلك – رسول اللّه وخير خلق اللّه،وأعظم من شرفت بهم الحياة!

ثم يتمثل في نظرة «هؤلاء الأعبد» لمكانهم عند اللّه ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها «سيوف اللّه» ونظرتهم لأبي سفيان «شيخ قريش وسيدهم» بعد أن أخره في الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول اللّه – ﷺ – وقدّمهم هم في الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام،وهو في شدة الابتلاء..فلما أن عاتبهم أبو بكر – رضي اللّه عنه – في أمر أبي سفيان،حذره صاحبه رسول اللّه – ﷺ – أن يكون قد أغضب «هؤلاء الأعبد»! فيكون قد أغضب اللّه – يا اللّه! فما يملك أي تعليق أن يبلغ

هذا المدى وما نملك إلا أن نتملاه! - ويذهب أبو بكر - رضي اللّه عنه - يترضى «الأعبد» ليرضى اللّه:«يا إخوتاه.أغضبتكم»؟ فيقولون:«لا يا أخي.يغفر اللّه لك»! أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية؟ أية نقلة واسعة هذه التي قد تمت في واقع الناس؟ أي تبدل في القيم والأوضاع،وفي المشاعر والتصورات،في آن؟ والأرض هي الأرض والبيئة هي البيئة،والناس هم الناس،والاقتصاد هو الاقتصاد..وكل شيء على ما كان،إلا أن وحيا نزل من السماء،على رجل من البشر،فيه من اللّه سلطان..يخاطب فطرة البشر من وراء الركام،ويحدو للهابطين هنالك عند السفح،فيستجيشهم الحداء - على طول الطريق - إلى القمة السامقة..فوق..فوق..هنالك عند الإسلام! ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة وتنحدر مرة أخرى إلى السفح.وتقوم - مرة أخرى - في نيويورك،وواشنطن،وشيكاغو..وفي جوها نسبرج..وفي غيرها من أرض «الحضارة!» تلك العصبيات النتنة.

عصبيات الجنس واللون،وتقوم هنا وهناك عصبيات «وطنية» و«قومية» و«طبقية» لا تقل نتنا عن تلك العصبيات..

ويبقى الإسلام هناك على القمة..حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته البشرية..يبقى الإسلام هناك - رحمة من اللّه بالبشرية - لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل،وترفع عينيها عن الحمأة..وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام..

ونحن لا نملك - في حدود منهجنا في هذه الظلال - أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة..لا نملك أن نقف هنا تلك «الوقفة الطويلة» التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها.لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها في تاريخ البشرية وهي تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط،إلى تلك القمة السامقة البعيدة..ثم تهبط مرة أخرى على عواء «الحضارة المادية» الخاوية من الروح والعقيدة!..

ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى بعد أن فشلت جميع التجارب،وجميع المذاهب،وجميع الأوضاع،وجميع الأنظمة،وجميع الأفكار وجميع التصورات،التي ابتدعها البشر لأنفسهم بعيدا عن منهج اللّه وهداه..فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في هذه الصورة الوضيئة وأن تفيض على القلوب الطمأنينة – مع هذه النقلة الهائلة – وهي تنقل البشرية إليها بلا مذابح وبلا اضطهادات وبلا إجراءات استثنائية تقضي على الحريات الأساسية وبلا رعب،وبلا فزع،وبلا تعذيب،وبلا جوع،وبلا فقر،وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التي يحاولها البشر في ظل الأنظمة البائسة التي يضعها البشر ويتعبد فيها بعضهم بعضا من دون اللّه..فحسبنا هذا القدر هنا..وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التي تفيض بها النصوص ذاتها،وتسكبها في القلوب المستنيرة.

« وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ،وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ»..ختام هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة.كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها..

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ»..بمثل هذا المنهج،وبمثل هذه الطريقة،وبمثل هذا البيان والتفصيل..نفصل الآيات،التي لا تدع في هذا الحق ريبة ولا تدع في هذا الأمر غموضا ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق فالحق واضح،والأمر بين،بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج..

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع،يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى :«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ»..

أما ختام هذه الآية القصيرة :«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ»..

فهو شأن عجيب!..إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب.إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا..إن استبانة

سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين.وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفـــرق الطريق! إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره اللّه – سبحانه – ليتعامـــل مـــع النفـــوس البشرية..ذلك أن اللّه سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤيـــة الجانب المضاد من الباطل والشر والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص وأن ذلك حق ممحض وخير خالص..كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صـــاحب الحق أنه على الحق ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل..
وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر اللّه في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عـــدوا منـــهم «وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ»..ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين،أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة،وفي وضوح،وعن يقين.
إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح.واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات.ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقـــف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم.فهمـــا صـــفحتان متقابلتان،وطريقان مفترقتان..ولا بد من وضوح الألوان والخطوط..
ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريـــف ســـبيل المجـــرمين ووضـــع العنـــوان المميـــز للمؤمنين.والعنوان المميز للمجرمين،في عالم الواقع لا في عالم النظريات.فيعرف أصـــحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون.بعـــد تحديد سبيل المـــؤمنين ومنـــهجهم وعلامتهم،وتحديـــد ســـبيل المجـــرمين ومنـــهجهم وعلامتهم.بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان،ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين وهذا التحديد كان قائما،وهذا الوضوح كان كاملا،يوم كان الإســـلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية.فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – ﷺ – ومن معه.وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهـــم في هـــذا الدين..ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان اللّه – سبحانه – يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة – ومنها ذلك النموذج الأخير

– لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنيـــة والإلحـــاد والـــديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفـــات البشرية..حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت ســـبيل المـــؤمنين الصـــالحين واضحة،وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك..لا يجدي معها التلبيس! ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا..إنهـــا تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين،في أوطان كانت في يوم من الأيـــام دارا للإسلام،يسيطر عليها دين اللّه،وتحكم بشـــريعته..ثم إذا هـــذه الأرض،وإذا هـــذه الأقوام،تهجر الإسلام حقيقة،وتعلنه اسما.

وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا.وإن ظنت أنها تدين بالإســـلام اعتقـــادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه..وشهادة أن لا إله إلا اللّه تتمثل في الاعتقاد بأن اللّه – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه.وأن اللّه – وحده – هو الذي يتقـــدم إليـــه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله.وأن اللّه – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله..وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا اللّه – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد.كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه.وأيمـــا أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا اللّه – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بـــدين اللّه،ولم تدخل في الإسلام بعد..

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين.وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام..ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إلـــه إلا اللّه – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين للّه بمقتضى هذا المدلول..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشـــق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحـــاط بمـــدلول لا إلـــه إلا اللّه،ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين،وطريق المشـــركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه

مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة.فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا.حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام!..تهمة تكفير «المسلمين»!!!

ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم،لا إلى قول اللّه ولا إلى قول رسول اللّه! هذه هي المشقة الكبرى..وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى اللّه باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين..ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى اللّه في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة.وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم،ولا صيحة صائح:انظروا! إنهم يكفرون المسلمين! إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن..الإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو،فحكم اللّه ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين..المجرمين..

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ،وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ»..أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى اللّه هذه العقبة وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل اللّه لا تصدها شبهة،ولا يعوّقها غبش،ولا يميعها لبس.فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل اللّه هم «المجرمون»..كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان.وأنهم وقومهم على مفرق الطريق،وأنهم على ملة وقومهم على ملة.وأنهم في دين وقومهم في دين:«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ»....وصدق اللّه العظيم...[٥٠]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٠] – في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع [٢ /١١٠١]

الفهرس العام